خَوَاتِيم

رواية

أحمد جاد

الكتـــــــــاب: **خواتيم**

المــؤلــــــف: **أحمد جاد**

تصميم الغــــلاف: **عصام أمين**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقـــم الإيـــداع: 26494 / 2015

الترقيــم الدولــي: 4 - 057 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 **ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة.**

هاتف: 0223952354 **- موبايل:** 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

خَوَاتِيم

رِوَايَة

أحمد جاد

Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

إهداء

إلى القلوب النقية الصافية

إلى من تبقى من الفُضلاء في هذا العالم

أهديكم أولى رواياتي

(١)

خرجت من بيتي قبل صلاة الجمعة بحوالي ساعة، كانت أكثر ممَّا توقعت، ليقطع التاكسي المسافة من بيتي في بولاق إلى بيت زميلي سيد، مدرس الألعاب بالمدرسة، الذي كان ينتظرنا في بيته بالمنيب بعد صلاة الجمعة، كما اتفقنا أنا وبعض زملائي المدرسين، لنزور والده الذي صار قعيدًا نتيجة حادث سيارة.

انتهزت تلك الزيارة لتفويت الفرصة على ما يمثله يوم الجمعة لي من وحدة ومللٍ، لم يغير القليل منها سوى انطلاق ثورات الربيع العربي، التي كانت تقدم لي جُمَعًا زاخرة بالأحداث، تقتل ملل إجازة نهاية الأسبوع، فمذ تُوفيت أمي، التي كانت تشاركني أدق تفاصيل حياتي بعد رحيل أبي بخمسة أعوام، أصبح البيت بلا طعمٍ ولا رائحة، فخلا البيت عليَّ ولم تعد تلج البيت قدم غير قدم أم

فتحي، التي اعتادت فتح الباب بنسخة مفتاحٍ تركتها معها، فتنظِّف البيت وتنصرف في هدوء.

هي جمعة مختلفة وجديدة؛ فهي الجمعة الأولى لي التي سبقتها صلاة فجرٍ في جماعة بالمسجد، وهي الجمعة التي تلت أربعة أيام من المواظبة على الصلوات كاملة، وأغلبها في جماعة؛ فعلى الرغم من سنوات عمري الأربع والعشرين، فإن عهدي بالصلاة لم يتعدَّ صلاة الجمعة إذا صحوّتُ في موعدها، وبعض الركعات الخاطفة التي تأتي حماسًا مع صيام الأيام الأولى من رمضان والتي تقلُّ تدريجيًّا حتى تتلاشى مع مرور أول أسبوع من شهر رمضان، بالإضافة إلى اضطراري إلى الصلاة حال وجودي مع قومٍ من المصلين.

أولئك القوم صرت منهم منذ أربعة أيام مضت، يوم تلقاني الشيخ صلاح، شيخ الجامع، ومعه مجموعة من السُّنِّية في إحدى جولاتهم التي لا تنقطع بشارع ناهيا والشوارع المتفرعة منه لحثِّ الناس على البر والتقوى، تلقوني وقتها بترحابٍ شديدٍ:

- أخبارك إيه يا أخ إبراهيم؟

زالت دهشتي سريعًا من كونه على معرفة باسمي، فليس غريبًا على الشيخ الذي يعرفه أهل الحي جميعًا ويستقون منه جل معلوماتهم الدينية، أن يعرف هو أسماء بعض أهل الحي، دعوني وقتها للصلاة والاستماع إلى درس سيلقيه الشيخ صلاح بعد الصلاة.

لبّيتُ دعْوَتهم وأنا على قدرٍ بسيطٍ من التحفُّظ، حجزت مكاني في الصف الأول في صلاة عشاء ذاك اليوم، وتلى العشاءَ فجرٌ، وتلى الفجرَ ظهرٌ، ولم أُضيّع صلاة منذ ذلك الحين.

ونتيجة للجرعات الإيمانية التي تلقيتها من الدروس اليومية للشيخ صلاح، بدأت أُعوِّد نفسي على ترك النميمة وغض البصر وغيرهما.

توجّهت صوب أول مسجد تطرق إلى أذني منه قرآن الجمعة بعد وصولي إلى المنيب، بالقرب من بيت سيد. وفي لحظة انشقَّت الأرض عن جنازة عرفَت طريقها إلى المسجد، فكنت من المتسابقين إلى حمل النعش، سرت معه وسار معي حتى استقر النعش مكانه خلف آخر صفوف الصلاة، وانفضَّ الناس من حوله،

وضج المسجد بأصوات القباقيب حين تزاحم المشيعون على دورة المياه، التي تقبع في نهاية المسجد، ويفصل بينها وبين المصلى ساتر خشبي أرابيسك، فصل ما بين مجموعة من المصلين شغلت دورة المياه وصنابير الوضوء ومجموعة أخرى استعدت للدخول بتشمير الأكمام وخلع الجوارب. بينما كنت أنا محافظًا على وضوئي فانزويت بإحدى زوايا المسجد المستطيلي الذي لا تتعدى فيه صفوف الصلاة أكثر من أربعة، لكنها تتسع لعدد كبير من المصلين؛ نظرًا لطول كل صف.

استغرق الخطيب في الحديث عن التوبة والحث على الإسراع بها؛ فالموت يطرق الباب بغتة، ولم يُنهِ خطبته دون أن يشير إلى حالة الوفاة التي شيّعها أهل الحي اليوم، سائلًا الله - عز وجل - أن يرزق الجميع التوبة التي رُزقها أخوهم جابر، الذي عرف طريقه إلى المسجد قبل موته بأسابيع، وهذه هي توبة ما قبل الموت التي ندعو الله دومًا أن يرزقنا إياها.

شيء من السكينة والراحة تملَّكني، من وقت أشار الخطيب إلى توبة ما قبل الموت، تلك التوبة وذلك الطريق الذي عرفته وداومت عليه

مذ عرفت ولزمت الشيخ صلاح وجماعته، ولم تلبث تلك السكينة أن تملكتني حتى تحولت رُويدًا رُويدًا إلى ريبة وخوف، اكتملت أركانهما مع مزاحمتي لحمل النعش مع المشيعين بعد الصلاة، ملابسات وأحداث واستنتاجات لم أحسب لها حسابًا، حدسيات وسوس بها لي مجهول ما، ورماني بعبءٍ لن أقوى على احتماله.

خرجت من الجنازة برسالة واضحة وشافية ومختصرة، استقبلتُها واستوعبتُها في دقائق معدودة، صدفة لقائي بالشيخ صلاح وجماعته؛ توبتي المفاجئة التي منَّ اللّه عليَّ بها فجأة، صلاتي التي لم أضيّع منها فرضًا منذ ذلك اللقاء، قدمي التي قادتني اليوم إلى ذلك المسجد دون قصدٍ أو اختيارٍ، الخطبة وصلاة الجنازة وحمل النعش.. كلها مقدرات مكتوبة، كقدر الموت الذي سيعيد تجربته التالية معي، بعد أن أتمَّ مهمته مع المرحوم جابر، المرحوم الذي ترحمتُ عليه، عندما سألني الحاضرون في بيت سيد عن سبب تأخري:

- كنت في جنازة المرحوم جابر!!

- اللّه يرحمه جابر!! انت صلِّيت في الجامع الكبير اللي في الشارع العمومي؟

لم يهمني حينها وصْلة العتاب التي ألقاها والد سيد عليه لعدم حضوره الجنازة وتأدية الواجب عن أبيه القعيد، ولم يهمني تبرير سيد لأبيه:

- معلش يا بابا.. أصلي صلّيت في الزاوية اللي جنب البيت علشان ألحق أقابل الناس اللي جاية.

لم تهمني كلمات المواعظ والحكم التي ردّدها الحاضرون، تلك الكلمات وذلك الخشوع الذي يحضر عند الحديث عن الموت، ثم يختفي ويتبخر بعد دقائق من انصراف كلٍّ منهم إلى حاله، وننغمس في كل ما هو نقيض للموت، ننغمس في الحياة بكل تفاصيلها ومُغرياتها.

ما شدني وأطرقت أذني لسماعه هو تأكيد سيِّد كلام الخطيب المقتضب عن المرحوم جابر:

- كان شقي!! وربنا هداه مرة واحدة من غير سبب، اللّه يرحمه،

الناس كلها كانت مستغربة الحال اللي بقى عليه، ما حدش كان عارف.

* * *

كاد يقتلني التفكير طوال طريق عودتي للبيت، غفوت في التاكسي لثوانٍ، فرأيتُ ما يشبه الحلم؛ أني مُهرول وحدي خلف نعش جابر الذي حملته اليوم، بينما بَدَا النعش طائرًا لا يحمله أحد، أفقت من غفوتي سريعًا، فوجدت نفسي ما زلت في التاكسي، قُضي الأمر بالنسبة لي، فما كان مني بعد رجوعي للبيت إلا أن سجَّيت جسدي، مادًّا قدميَّ، شبَّكت قدمي اليُمنى فوق اليسرى، ضممت يديَّ على صدري، استدعيت بذلك وضعية الجسد المُسجى فوق فراشه، منتظرًا موعده المقدر للتشييع، واجهتني مصاعب في عدم ارتياحي لوضعي القدم اليُمنى فوق اليسرى، كلما غيرت الأدوار أجد الراحة في وضع القدم اليُسرى فوق اليُمنى.

رسالة جديدة استوعبتها، لن تجد قدمي اليمنى راحتها فوق اليسرى إلا لو أحسنتُ خواتيم أعمالي في الأيام المتبقية لي في

الحياة، ربما رابضت صحيفة أعمالي في ركنها الشمالي فيما مضى من حياتي، لكن سأقتفي أثر الخواتيم، كي أعدل مكان صحيفة أعمالي؛ فالعبرة بالخواتيم.

(٢)

صار الموت يناورني، يراودني عن نفسي، يلسعني لفحُ هواه، فتضرب جسدي وخزاته، كان يصول ويجول في الغرفة طوال الليل، لم تعد هناك حاجة لمن يُنبهني إلى صلاة الفجر، كنت أول من لبى نداء فجر ذلك الصباح، الصباح الأول بعد الإنذار الذي سلمه لي الموت أمس في موقعة المنيب، أتى قرآن الفجر من ميكروفون المسجد، هممت معه أتلقى طلائع ذلك اليوم، هاربًا من الليل وظلمته، استرقْتُ السمع لما كان يرتل الشيخ:

- «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (الحجر: ٩٩).

ظننت معه أنها لي، واليقين هو الموت كما أعلم، كانت حركتي ثقيلة في الوضوء وتغيير ملابسي والخروج إلى المسجد، فوصلت بعد رفع الإقامة وشروع الشيخ صلاح في الركعة الأولى، ما إن رفعت يدي

بتكبيرة الإحرام، حتى جاءني رد الشيخ صلاح قارئًا:

- «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ × ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً × فَادْخُلِي فِي عِبَادِي × وَادْخُلِي جَنَّتِي» (الفجر: ٢٧ - ٣٠).

اطمأن قلبي ونزلت به بعض أمارات السكينة؛ فالرسالة الجديدة التي جاء بها الشيخ صلاح تحمل - على الأقل - البُشرى بالاطمئنان والرضا، تملَّكني شعور بالراحة وغمرتني سكينة لم أعهدها من قبلُ، ومن منا لا يتمنى الموت ونفسه مُطمَئِنة، وأن يعود إلى ربه راضيًا مرضيًّا؟

ذلك الشعور خلَّف لديَّ رغبة في البقاء بالمسجد، فنويت البقاء حتى طلوع الشمس، رغمًا عن أنف «أبو حسن»، صاحب البيت الحاضن للمسجد، الذي أطفأ الأنوار وأخذ يتنحنح، حتى يئِس من خروجي مع المصلين، فأخذ نفسًا عميقًا وقال:

- ابقى قول لما تخرج علشان نقفل الجامع يا أستاذ.

انصرف أبو حسن بعدها لعربة الفول التي لم تتزحزح منذ سنوات من على باب المحل المجاور لباب المسجد، الذي اتخذه أبو حسن

مصدر رزق له ولعجلين برأسين بشريين هما ولداه حسن وأمين، وهما من تشعر في وجودهما أن المسجد ملك لهما، وأن المصلين ضيوف لديهما.

ظللت عاكفًا على قراءة القرآن والاستغفار في ذلك الجو المفعم بالسكينة بعد أن أطفأ أبو حسن الأنـوار، إلا من شعاع أخضر منبعث من صاعق الحشرات الطائرة المعلق بسقف المسجد، وانعكس ضوؤه على أرفف المصاحف أسفل منبر الإمام، فصنع مع السجاد الأخضر شعورًا وكأنك في حضرة مقام لولي من أولياء اللّٰه الصالحين، وساعد على ذلك مساحة المسجد الصغيرة المربعة التي احتل المنبر أكثر من ثلثها.

مر الوقت سريعًا حتى تنفس الصبح، وبدأ ضجيج زبائن «أبو حسن» وصوت الأطباق وأنين العجول البشرية، فهممت بالخروج من المسجد، فقابلني ابنا «أبو حسن» عند خروجي من المسجد بنظرات الضيق والتوعد، فسحبت باب المسجد طواعية واستسلامًا، إشارة مني إلى أني سأغلقه بنفسي، وليس هناك أي داعٍ لتعب حضراتكم. أكملت خطواتي نحو العربة ذاتها، وعينا «أبو

حسن» لم تفارقاني، على الرغم من أن يديه كانتا مشغولتين بلف ساندويتشات الفول لأحد الزبائن، ثم مسح سطح العربة بفوطة برتقالية متسخة، وقال لي شادًّا على أسنانه:

- أأمر يا أستاذ.

رددت عليه بعد أن بلعت ريقي:

- الأمر لله، ساندويتشين فول وواحد طعمية.

فنادى أبو حسن على ابنه أمين بعد أن شرع هو في صب الفول في الطاسة:

- هات الطعمية اللي طلعت عندك يا أمين.

رمقني أمين بنظرة تنمُّ عن مخزون الغضب الذي حمله لي خلال الوقت الذي قضيته في المسجد رغمًا عنهم. ولم ينسَ أن يدير مفتاح الراديو قبل إحضار الطعمية لأبيه، فجاء صوت القارئ من الراديو بقوله تعالى: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ» (النساء: ٧٨)، فبدا لي أمين شريكًا في المؤامرة التي ينسجها الموت حولي، عقابًا منه لي على ما سببته لهم من قلق من

جرَّاء جلوسي وحيدًا بالمسجد.

* * *

عاد مشهد وفاة أبي يطل عليَّ؛ حيث كان أول لقاء لي مع ملك الموت، وقتها انشغلت أنا وأمي بوداع أبي وتلقينه الشهادة، في الوقت نفسه الذي كنت أتحسس فيه المكان والزمان، وارتجفت لرهبة الزائرين المخفيين، الذين حضروا لقبض روح أبي، أولئك الذين كانت رائحتهم تملأ المكان، رائحة الموت تُحس ولا تُشم، تلقيتها واستيقنتها فزرعت لديَّ خوفًا مزمنًا من فكرة الموت، ذلك الخوف الذي كان قد رمى بذوره بداخلي قبل ذلك المشهد بسنوات، يوم أن تمكن الفتى، صاحب الثلاثة عشر عامًا، من حمل أبيه الذي تعدى وزنه المائة كيلو، لا أدري حتى الآن كيف قويت على حمل أبي!! لنلحق به قبل أن تفتك به الأزمة القلبية التي انتابته في منتصف الليل. ثم قضيت شهرًا كاملاً، أو ما يزيد عليه ببضعة أيام، ما بين الخوف من تلقي خبر موته عند زيارتي له في المستشفى صباحًا، والخوف من التليفون الذي سيصدمنا في المساء. مر أكثر من صباح ومساء ولم تغادره أنفاسه، لكنها تحوَّلت إلى أنفاس واهنة تصارع

الحياة. عاش أبي مع المرض الذي لازمه، وعشت أنا مع الخوف من اللحظة التي سنفقده فيها. لم تمر ليلة إلا وكان مروري على غرفة أبي طقسًا يوميًّا، أطمئن أنه ما زال على قيد الحياة. عكفت على مراقبة أنفاسه، حتى هربت مني في ليلة ما، تأخرت فيها عن نوبة المراقبة، واستغرقت في النوم، حتى أيقظتني أمي على الفزعة الكبرى. لم يكن قد تبقى من أبي سوى أنفاس متحشرجة وعينين مترقبتين كادتا تنطقان بحقيقة ما تريانه، وما هو غائب عنَّا نحن. لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودات، ودّعنا فيها أبي ولقناه الشهادة. واستسلمت أنا للحظة الحصاد، حصاد موسم الخوف، الخوف الذي نضج، وتذوقت طعمه، وتملّكني من حينها. أما وفاة أمي فإن صدمة فراقها غطت على معنى الموت في ذاته.

(٣)

من البيت للمسجد ومن المسجد للبيت.. اعتزلت الجميع وترفعت عن الحياة. تبدو الصورة وكأنني اعتزمت الرحيل، لكن الأصح أنني تلقيت حكمًا بالنفي، حكمًا من قاضٍ غيبي بالإبعاد القسري عن تلك الحياة، حكمًا بلا تهمة، فهي محكمة خاصة لها قوانينها الخاصة، تعلو منصتَها لوحةٌ مكتوب عليها «قُضي الأمر»، هو حكم واجب التنفيذ مكتوب ومقدَّر على كل البشر، وما القاضي هذا إلا متحدث رسمي باسم المحكمة، ينطق بالحكم على كل إنسان، حسب دوره وميعاده.

فبعد أن أمضيت ثلاثة أيام مواظبًا على صلاة الجماعة، لم أضيّع فيها فرضًا واحدًا، وبعد أن استأنست بالمسجد وحيدًا مناجيًا ربي بعد انصراف المصلين عقب كل صلاة، يختلف الأمر ذلك اليوم؛

فعند صلاة المغرب كان المسجد مزدحمًا، ظهرت وجوه جديدة لم آلفها من قبلُ، يجمعهم شيئان: اللحية الطويلة والجلباب القصير.. كانت هناك ستارة قد وُضعت على منطقة مربعة في آخر المسجد، تعطيك انطباعًا بأنها منزل هؤلاء الوافدين؛ فهم ما بين داخل إلى تلك المنطقة وخارج منها، وقد مكّنني دخولهم وخروجهم من استطلاع ما وراء تلك الستارة: حقائب سفر وبطاطين وجلابيب معلقة على الحائط. إنهم إذًا مقيمون بالمسجد، وأين أبو حسن وولداه من ذلك الذي من المؤكد سيحتسبونه عبثًا بالمسجد، أم أنهم لا يجيدون سلطتهم المفترضة إلا عليَّ أنا وأمثالي من المصلين الفرادى، أما الجماعة والعزوة فلا قِبَل لهم بهما.

أدركت الأمر بعد صلاة المغرب، بعد أن تحوّل المسجد إلى حلقات متعددة، تجمع كل حلقة واحدًا أو اثنين من السُّنِّية مع مجموعة من المصلين. ثم توجَّه نحوي شاب طويل رفيع ذو لحية طويلة وابتسامة مشرقة، كان وجهه مألوفًا بالنسبة لي، من المؤكد أني رأيته من قبلُ، لكني لا أتذكر أين. كانت ابتسامته الودود، التي كانت صادقة، نافذة إلى القلب، كفيلة بقبولي له بل والقبول، عن

ترحيب، بجلوسه معي. عرَّفني بنفسه وتعرف هو عليّ، ثم أجاب عن كل التساؤلات التي تدور بخلدي عنه وعن ضيوف المسجد وحقائبهم وبطاطينهم، هم مجموعة من مرتادي مسجد نور الإيمان في منطقة مطار إمبابة. عندما قال مطار إمبابة، أحسست وكأني سأمسك بالخيط الذي سيوصلني لذكرى لقائي به من قبلُ، هربت مني الذاكرة عندما عاجلني بباقي التفاصيل، هم والسنية من مرتادي المساجد في الأحياء والمدن القريبة من بعضها، يتبادلون الزيارات للاعتكاف في المساجد بعيدًا عن منازلهم وأحيائهم، والشيخ صلاح وجماعته يردون الزيارة في وقت آخر، إذًا فالأمر اعتكاف في المسجد وتقرب إلى اللّه، هكذا وجهت سؤالي لهيثم، وهو اسمه كما عرفني بنفسه، فردَّ قائلًا:

- بل أبعد من ذلك بكثير، هو هجران للدنيا ومفاتنها، المغريات بالخارج كثيرة يا أستاذ إبراهيم.

بدأت أجمع خيوطًا قد توصلني لإجابة سؤال: أين رأيته من قبل؟ مغريات واسمه هيثم وملامحه ليست غريبة عليَّ، فركتُ جبيني وشددت على أسناني، مع نظرة حادة، استغرب معها هيثم

تصرفاتي الغريبة، حتى أمسكت بالخيوط، وجمعت بعض الجمل التي استدعتها ذاكرتي من موقف حدث أمام عينيّ منذ ما يقرب من عشر سنوات:

(هيثم.. البنت لازم تنزل. مش هتنزل يامّا. عيب يا هيثم اسمع كلام أمك. يا ولِية فضحتينا. انتَ اللي جبتلنا العار. نزّل المومس اللي معاك من فوق. البنت مش هتنزل، ولو حد ليه شوق في حاجة يوريني نفسه).

تذكرته جيدًا، كنت أتلقى درسًا في إمبابة بينما كنت بالمرحلة الإعدادية، وخرجنا جميعًا، الطلاب والمدرس، من شُرفة زميلنا صاحب الشقة التي كنا نستقي فيها الدرس، كان مشهدًا قبيحًا: خناقة بين أم وابنها الشاب عندما قفشته مع مومس في شقتهم، فطرد أمه إلى الشارع، التي لم تجد غير الصياح والنواح في الشارع، لتجبره على التخلص من تلك النجاسة، وتدخَّل أهل الحي للضغط على الشاب ليذعن لكلام أمه، وكان مصممًا ورأسه حجر، حتى ظهر أخطر بائعي البانجو في الشارع مرتديًا ثوب الواعظ، آمرًا هيثم أن يُذعن لكلام أمه، ثم عاجله بضربة من مطواة على

جبهته، ولم ينتهِ الأمر يومها إلا بعد أن أخذتهما دورية الشرطة إلى القسم، وانتهى يومها الفيلم بالنسبة لي بنهاية حصة الدرس. وها هو هيثم بشحمه ولحمه، وها هي الضربة التي عاجله بها البلطجي حفرت مكانها في جبهته، ولم أرفع عيني عنها طوال حديثه، حتى إنه ارتبك في كلامه حين لاحظ تركيزي معها، ما دفعني إلى افتراض الرسم بإصبعي على الأرض، تفاديًا للنظر تجاهه. تمادى هيثم في حديثه معي؛ فبعد مقدمة الكلام في الدين، لعب هيثم معي دور البطل، الذي عاد بعد عشر سنوات تفصلني عن حصة الدرس تلك، ليقدم الجزء الثاني من الفيلم الذي يحكي قصة حياته؛ فقد كان مشهد ركوبه البوكس مع البلطجي هو مشهد النهاية في الجزء الأول، أما ذلك الجزء الثاني من الفيلم فيتخذ البطل دوره، من منطلق الحكي عن حياته بعد الجزء الأول، التي اختصرها هيثم لي في جملة واحدة سماها «بعد ما ربنا هداني وتاب عليَّ من أيام الشقاوة»، وهو حينها لم يكن مدركًا أنني كنت شاهدًا على المشهد الأكثر قسوة ودراما في أيام الشقاوة تلك؛ ففي الوقت الذي تصور فيه هيثم أنه اختصر لي أيام الشقاوة من دون إحراج، فقد كان

المشهد الذي حضرته بنفسي كفيلًا بإعطائي تصورًا شاملًا عن حياة هيثم في أيام الشقاوة، ما منحني إحساسًا بالنشوة؛ كوني على علم كامل بما يحاول إخفاءه عني عن تلك الفترة التي حتمًا سيشعر بالخزي من تفاصيلها. استطرد هيثم في الحديث وكيف منَّ اللّه عليه بالهداية، وأتم نعمته عليه بالبركة التي منحها إياه في التجارة، بعد أن افتتح محلًّا للعطارة. ولم أدرِ لماذا ذهب عقلي للعطارة تحديدًا، عندما أشار إليَّ أنه يعمل في التجارة، فقد تخيلته ممسكًا بكيس وبيده الأخرى مغرفة يملؤها بالتوابل ويعبئها في الكيس، تخيلته على الرغم من أنه صنَّف تجارته كعطارة بعد دقائق من الحديث عن التجارة والبركة في الرزق بشكل عام، وبعد أن تخيلته عطارًا حتى قبل أن يصرح لي بذلك.

استطاع هيثم أن يخترق تلك العزلة التي فرضتها على نفسي في الأيام الثلاثة التي سبقت معرفتي به والتي تلت استقبالي لرسالة الموت؛ فقد صرحت لهيثم بأني في عزلة من بداية الأسبوع، وأنني امتنعت عن الذهاب إلى عملي في المدرسة منذ ذلك الوقت. لم أجرؤ على أن أصرح له بأنني تلقيت رسالة غيبية بأنني في عداد

الموتى، بالطبع كان سيوبخني؛ فهو رجل سبقني بكثير في محراب الاستقامة والإيمان. عللت له الأمر بأنني أعاني اكتئابًا من ظروف العمل في مدرسة خاصة، نتقاضى فيها راتبًا ضئيلًا لا يتناسب مع ما نقدمه من عمل، لم أصرح له بأنني ورثت عقارًا عن أبي يدر عليَّ إيرادًا شهريًّا، وإلا اتهمني بالجحود.

خطفني هيثم بكلام مختصر مفيد، فيه شفاء للقلب وغذاء للروح، حسن الظن بالله، الرضا بالمقسوم. أصاب كلامه الحقيقة والوهم، الوهم في اكتئاب المدرس الغلبان، والحقيقة في الموت الذي يحوم حولي. لم يكن لديَّ الاختيار للإيمان بعقيدة هيثم أو التردد إزاءها؛ فأنا كغريق يتعلق بقشة، تتوق نفسي للحياة، وأتطلع لمن يكذِّب هواجسي التي نغَّصت عليَّ حياتي في الأيام الخالية. كان هيثم كالطبيب الذي عاد بمريضه إلى الحياة من جديد، طبيب زف لمريضه بشرى خلوه من مرض مميت، بعد أن كاد تشخيص خاطئ من طبيب آخر يفتك به.

أقنعني هيثم بالاعتكاف معهم في المسجد، ولو لليلة واحدة أو

ليلتين، حسب ما ستتوق إليه نفسي. فلم أستهلك أكثر من نصف ساعة عدت فيها للبيت، جمعت خلالها بعض الملابس ثم عدت إلى المسجد، فصرت من المعتكفين، وكانت أغراضي بين أغراضهم على جدار المسجد.

* * *

وجدت نفسي مُنَاهَا في تلك الصحبة، هيثم وأقرانه، اقتربت منهم وتأثرت بهم، اتخذت قراري بأني سأمضي حياتي مع هؤلاء، إن طالت حياتي أو كان الأجل القريب مصيبها، لم يعد قرب الأجل يشغلني، اختفى شبح الموت من أمامي. راحة غريبة تلك التي أصابتني عند نومي في المسجد ليلتين متتاليتين، مصاحبًا للسنية المعتكفين، ما أروعها من سكينة عندما تغفو عيناك في إضاءة خافتة لنور المسجد، على ذكر ذاكر أو تلاوة قارئ أو صلاة قائم بالليل. بل والأدهى من ذلك أن قدمي اليمنى لم تعد تجد صعوبة في ترسيخ مكانها فوق اليسرى.

(٤)

بعد أن غمرني نور تلك الصحبة، وعمَّت السكينة قلبي، وتطلعت للحياة من جديد، رجعت إلى البيت ليلة الجمعة، عاقدًا النية على العودة للأخيار قبل صلاة الفجر.. فما إن دلفت من باب البيت، حتى تملكني الإحباط من ذلك البيت الكئيب؛ فضوؤه الخافت ليس كالضوء الخافت بالمسجد، كما أن هدوءه الباعث على الكآبة ليس كالسكينة التي تزينها الأصوات الخافتة بالذكر وقراءة القرآن. فانتابني النفور من البيت، حتى عزمت على العودة لتلك الصحبة الطيبة سريعًا.

نصف ساعة كان كافيًا لأخذ دش دافئ سريع، جمعت بعدها ما استطعت جمعه من الأطعمة السريعة والفواكه المحفوظة بالثلاجة، كي أجتمع على تناولها في المسجد مع هيثم والصحبة.

قبل خروجي من البيت دق جرس التليفون، كان حسن، صديقًا من أيام الجامعة، فرقتنا الحياة بمشاغلها، سُررت لسماع صوت حسن، كانت مكالمة حميمية، تبادلنا الأسئلة عن أحوالي وأحواله، وتطرقنا إلى الحديث عن الأصدقاء، من سافر منهم ومن تزوج، ومن فرقتهم دروب العمل في مصر، أما حسن فيعمل مثلي مدرسًا، لكنه يعمل بالحصة في وزارة التربية والتعليم، شكا لي من ضعف دخله الذي يتقاضاه عن تلك الحصص، لكنه عاد ليؤكد أنه أفضل حالًا من كثيرين، أفضل من مصطفى يونس، زميلنا الذي كان أرفعنا خلقًا وتدينًا، بل وأفضلنا علمًا، حصل على تقدير جيد الذي لم أحصل عليه أنا ولا حسن، يعمل بائعًا في محل أحذية، حكى لي حسن أنه أصيب بإحراج شديد عندما وجد مصطفى في المحل الذي اشترى منه حذاءه الأخير. حمدت الله كوني مدرسًا في مدرسة خاصة، مرتب ضئيل ولكن إيراد البيت والأرض في البلد يغنيني عنه.

بعد أن أنهيت مكالمتي مع حسن، تولدت لديّ رغبة في الاتصال بمن غابت عني أخبارهم من الأهل والأصدقاء، تناولت أجندة

خضراء ملقاة في مكتبة التليفزيون، كنا نحن ومصر كلها نسجل فيها وفي مثيلاتها في بيوت مصر تليفونات خلق اللّه، قبل أن يطغى الموبايل ووظائفه على كل شيء. شرعت في إجراء المكالمات، بعض الأرقام قد تغيرت، لكن السيدة الفاضلة التي سجلت وزارة الاتصالات صوتها برسالة مفادها أن الرقم قد تغير، لم تنسَ، بذوقها وأخلاقها، أن تخبرك بالرقم المطلوب زيادته، كنت شرهًا في الاتصال بكل من أعرفه، زملاء الجامعة وأقاربي الذين انكمشت بيني وبينهم حبال الود، منهم من بدا مسرورًا بسؤالي عنه، ومنهم من كان لسان حاله قائلًا: «إيه اللي فكرك بينا؟».. غير أن الكثير منهم لم أنجح في الوصول إليه، منهم من سافر أو تزوج أو لم يكن موجودًا بالبيت وقت اتصالي، فكنت أفعل كما فعلت مع آخر مكالمة أجريتها من تلك المكالمات المباغتة، كنت أترك رسالة مفادها: «إبراهيم بيسلم عليك»، أو «إبراهيم سأل عليك».

هاجمتني فجأة هواجسي المريضة، فأي سلام هذا؟ وأي سؤال؟

سمعت من أمي، من قبلُ، أن أباها ليلة وفاته مرَّ على جميع أهله

وأحبائه للسلام عليهم بعد أن صلى العشاء في المسجد، في تصرف غير معهود منه، ثم تكوَّم على كنبته فور دخوله فلقي ربه، ليس فقط أبا أمي، بل إن ذاكرتي تكاد تتذكر كم سمعت عن خواتيم لأموات كانت بالسلام والسؤال على الأهل والأصحاب، إنها الخواتيم التي صوّرت لي هواجسي في تلك اللحظة أنها خواتيمي بعد يومين من الاعتكاف بالمسجد، تبعتهما الرغبة في السلام على الأهل والأحباب قبل أن تدق ساعة الرحيل، التي تسلل الشك إلى قلبي أنها حانت الآن.

انزلقت في كرسي منكمشًا، واستطاعت رائحة الموت أن تتسلل لتملأ محيطي، كأخطبوط فرد أذرعه حولي، فزاد انكماشي وتكوَّمت على نفسي، لم أجرؤ حتى أن أفتح عيني، كنت مفزوعًا، فالموت صار كائنًا ملموسًا يدغدغني، انتابني إعياء وسرى في روحي وجسدي، لا أدري أنومًا كان أم إغماءة أم أن الموت تمكَّن مني!

(٥)

أشرقت الشمس بغتة، فاندثرت رائحة الموت، وانتزعتني أشعة الشمس من نفسي، وقتما كانت روحي قد بدأت تشق طريقها نحو سراديب الموت. لم أدرِ كم لبثت، ساعة أو بضع ساعات، حين همت أم فتحي بفتح شبابيك الصالة على مصاريعها، إيذانًا بإشراقة صباح يوم جمعة جديد، حضرت فيه لتنظيف المنزل، فتسللت أشعة الشمس وغمرت المكان، فنهضت على أثرها من غيابات الجب، التي تكومت فيها على نفسي، منذ أن انزلقت في كرسي، كاتبًا بذلك نهاية ليلة حالكة السواد، تهت فيها في الطريق ما بين الحياة والموت. كانت سجلاتي تحمل تاريخًا مشرفًا مع أشعة الشمس، منذ الزلزال الذي ضرب مصر في تسعينات القرن الماضي؛ حيث كانت آمالي تتجدد في نجاة بيتنا من توابع الزلزال،

حينما كانت أشعة الشمس تتسلل إلى البيت كل صباح، فتتبدد معها كل هواجس الخوف والرعب التي تنتابني طوال الليل، من أن نتكوم تحت أنقاض بيتنا.

من حينها، وصارت أشعة الشمس أذانًـا بالتفاؤل وحب الحياة طوال ما مضى من عمري، كما فعلت معي من قبل بعد صدمتي في وفاة أبي وأمي، وبعد كل صدمة حب أيام المراهقة، وبعد أي فشل دراسي، وها هي اليوم تؤدي أفضل أدوارها على مسرح حياتي.

منحت نفسي حمامًا باردًا منعشًا، وخرجت إلى الشارع قبل صلاة الجمعة بحوالي ساعة، لم أقصد شيئًا محددًا سوى الحياة بشمسها التي تعم الشوارع بأشعتها، فقادتني قدماي إلى كوبري المشاة الذي يفصل بين شارعي ناهيا والسودان، في لحظة كنت فيها قد نسيت هيثم وصحبته، دون قصد مني أو تعمد، فقط قدماي هما ما كانتا تقودانني، إلا من نية واحدة نويتها، هي صلاة الجمعة في أي مسجد قد ترميني قدماي عند بابه، سأتسكع تحت أشعة الشمس حتى يتطرق إلى سمعي إقامة الصلاة، ليس هناك خطبة جمعة اليوم، لن أنحشر بين المصلين حتى تتنمل قدماي، فأسند ذراعي

على من يجاورني فينظر لي باشمئزاز، وأصر أنا على استنادي على كتفه تفاديًا للوقوع، سأصلي اليوم صامدًا على الحصير المفروش خارج المسجد. قادتني قدماي قبل هذا كله، وبعد إشارة سريعة من حاسة الشم، إلى عربة فول زيَّنها صاحبها بالمخللات والجرجير، تناولت طبق فول شهيًّا بالزيت الحار والدقة والليمون، مع الباذنجان المخلل والطرشي، فأصابني بعد تناوله الخمول والتثاؤب، وشعرت بهدَّة في جسمي، ألقت بي على كرسي على مقهى يبعد عن عربة الفول بخطوات، المقهى كان هادئًا بدرجة كبيرة، بطبيعة الحال في ذلك الوقت من صباح يوم الجمعة، كان خاليًا إلا من رجل أربعيني وسيدة أربعينية انزويا في ركن القهوة، كانا يبدوان وكأنهما هاربان من شيء ما، متخفيان عن العيون، في مكان لن يكلفهما الكثير مقابل جلسته.

طلبت من القهوجي كوب شاي بحليب، فجاء بشاي وشيشة معسل لم أطلبها، كان صامتًا وهو يضع الشيشة، مقرًّا بأن الشيشة طقس يومي في حياتي، على الرغم من أنني لم أشربها من قبلُ سوى أنفاس معدودة على أصابع اليد، كنت أختلسها من أصدقائي

مدمني الشيشة، لم أستغرب فعل القهوجي كثيرًا؛ فيبدو أنه لم يكن في كامل تركيزه في مطلع ورديته وقد استيقظ توًّا من النوم، ربما تصورني زبونًا ممَّن يتم وضع الشيشة أمامهم دون أن يطلبوها، بسبب حالة السطل التي كان عليها القهوجي.

تناولت خرطوم الشيشة مترددًا، لكن حسمت قراري بشرب المعسل، كان وجه القهوجي ينطق بالعبوس، فلن آمن رد فعله إذا رفضت شيشته بعد أن قام برصّ الحجر ففقد عذريته، اختلست أنفاسًا خفيفة، ورويدًا رويدًا فتحت رئتاي طريقهما لذلك الدخان الذي استقر في رأسي، فلم أجد صعوبة في شد المزيد من الأنفاس، انتابتني نوبات كحة متقطعة، تغلبت عليها برشفات ساخنة من الشاي بحليب، استهلكت أربعة أحجار معسل كاملة، كان القهوجي قد جاء بها على الطاسة، كان الرجل والسيدة قد انصرفا مع تغيير الحجر الثاني، فتركا المقهى خاليًا، إلا مني أنا والقهوجي وصوت قناة الأخبار التي كانت على تليفزيون المقهى، ومع مطلع الحجر الرابع، دبت حركه مفاجئة في المقهى، الكثير من الزبائن، مثنى وثلاث ورباع، انزلقوا على مقاعدهم، هيئتهم توحي بأنهم

انتهوا لتوِّهم من صلاة الجمعة، كان أغلبهم حاملًا سجاجيد صلاة وأهرام الجمعة.

ها قد فاتتني صلاة الجمعة جملةً بخطبتها وصلاتها، بعد أن كنت أنوي أن أستقطع منها فقط ركعتي الصلاة، ضاعت صلاة الجمعة وضاعت معها طاعات عشرة أيام كاملة كنت قد ادخرتها، كي أبددها على ذلك المقهى اللعين، في صحبة القهوجي المسطول، والعاشقين الهاربين اللذين شهدا ميلاد أول حجر معسل كامل غير مختلس الأنفاس يشق طريقه نحو رئتيَّ.

شعور جديد علي التقطتُه من على نقطة فاصلة ما بين الوعي واللاوعي.. لقد تضاءل الإحساس بالخوف من قرب الأجل، مزامنةً مع ترك الصلاة والعربدة على المقهى، التقطتُ ذلك الشعور وانتقلت به إلى الوعي والتدبر، ركزت وحللت، الأمر إذًا مرتبط بالإمعان في الطاعات، فيدفعني إلى الخوف من الموت؛ فهي حالة مرضية إذًا، سأتقمص أنا دور الطبيب والمريض، وأداوي نفسي بنفسي، مكمن المرض في الطاعات، زيادتها يعني

الهلاك وانتشار رائحة الموت حولي، كما أن العقل يقول إن إهمالها يؤدي إلى الهلاك أيضًا، إذا باغتني الموت حتى وإن لم أتوقعه، إذًا فعلاجي مع السواد الأعظم من أبناء جيلي، سأمشي على سطر وأترك سطرًا، سأصلي في البيت ولتقُدني قدماي إلى المسجد حسب الظروف، لن أصحو على ميعاد صلاة الفجر، سأصليها وقتما أستقبل الصباح في أي وقت كان.

(٦)

آتت الوصفة السحرية ثمارها سريعًا ومن أول جرعة، طبقًا للروشتة التي كتبتها لنفسي، بصفتي الطبيب والمريض، أمشي على سطر وأترك سطرًا. أخذت حياتي شكلًا جديدًا، بعد أن كتبت النهاية لذلك الصراع الذي عشت فيه فيما مضى من أيام، من تلك الساعة التي استسلمت فيها لنداء الشيخ صلاح وجماعته، الذي دفعني للانكباب على الطاعات دون تمرين أو تمهيد، مرورًا بخطيب الجمعة الذي حمل لي رسالة الموت القادم، وصولًا إلى هيثم الذي غمرني وصحبته بسكينة الطاعة والورع والتقوى، ثم الوقفة الشهيرة مع تلك الليلة الكئيبة التي مثلت لي محاكاة الموت وتفاصيله، حتى أنهيت ذلك الصراع بيدي، في المقهى وعلى سحابة دخان الشيشة، التي أصبح إقبالي عليها سببًا لطرقي أبواب

المقاهي يوميًّا، مستمتعًا بذلك الطقس الجديد عليَّ.

بمرور الأيام وقبل أن يتم الأسبوع دورته، كانت قدماي قد انزلقتا من على السطر الذي كنت قد انتويت السير عليه، ورويدًا رويدًا ضاعت صلاتي حتى في البيت، مثلما ضيَّعتُها في المسجد من ذي قبل، حتى قادتني الصدفة إلى صلاة العصر في المسجد يومًا ما عند عودتي من المدرسة، حين هممت بمساعدة عم عبد اللّه، جارنا المُسن، الذي أخذت بيده حين كان خارجًا من بيته المقابل لبيتنا، فقط استند عليَّ، فقادتني قدما عم عبد اللّه إلى المسجد عنوة، فلم أكن أدري إلى أين ستحملني هاتان القدمان الواهنتان حين أخذت بيد صاحبهما، الرجل الذي كان يهفو إلى المسجد في همة وعزيمة لا تتناسبان مع شيخوخته ووهنه، أقعدت عم عبد اللّه على كرسي يصلي عليه وشرعت في الوضوء، مستغربًا تلك الصدفة التي قادتني للمسجد. انتابتني الحسرة على نفسي الضعيفة المهزوزة، بعكس تلك الهمة التي بدا عليها ذلك العجوز. تطلعت ممعنًا في وجه عم عبد اللّه، في حين كنت أجفّف ماء وضوئي، أمعنت في التفكير فجاء الجواب، ربما كانت رسالة حملها عم عبد

اللّٰه توصي بعودتي إلى المسجد، فانتظمت بين المصلين راضخًا للأمر، وعازمًا على معاودة الصلاة. عرضت على عم عبد اللّٰه أن أساعده في العودة لبيته بعد أن أنهينا الصلاة، فأشار بيده شاكرًا وممتنًّا، مشيرًا في كلمات مقتضبة إلى بقائه بالمسجد. رجعت إلى البيت، وأغلقت جميع السبل أمام عقلي، للتفكير في الهواجس أو الموت، فقط سأعود في صلاة المغرب، فنجحت في إبقاء عقلي على الوضع ساكنًا.

لاح لي نشاط ملحوظ عند باب المسجد، في اللحظة الأولى التي وطئت قدمي فيها الشارع ذاهبًا إلى صلاة المغرب، هرج ومرج وناس داخلة وناس خارجة، ووجوه غريبة تصطف خارج المسجد. أكملت طريقي حتى دلفت إلى المسجد، فازدادت دهشتي حين وجدت الستارة نفسها، التي كانت تخفي وراءها أغراض هيثم من قبلُ، والتي لم تكن موجودة في صلاة العصر قبل ساعات، كما أن بعض الأشخاص الداخلين والخارجين لما وراء الستارة لا تحمل وجوههم سمات هيثم وصحبته؛ فهم بلا لحية ولا جلباب. ثوانٍ معدودة لم تمهلني لاستطلاع الأمر، حتى خرجت المفاجأة المدوية

من وراء الستارة، كان هناك شخص مكفن محمول على الأيدي، تم وضعه في الخشبة التي دخلت للمسجد في اللحظة نفسها التي خرج فيها الجثمان من وراء الستار، أفجعني هول الموقف، ثم فجعتني المصيبة حين تطرق إلى سمعي جملة تكررت على ألسنة الحاضرين (اللّه يرحمك يا حاج عبد اللّه)، الذي جاء للمسجد في صلاة العصر ليصلي صلاة الوداع، ويغسَّل ويكفَّن في المسجد، ويصلَّى عليه في صلاة المغرب.

* * *

عدت إلى البيت مكتئبًا ومهمومًا، محمَّلًا برسالة الموت الجديدة، التي حملها لي جثمان عم عبد اللّه. مددت جسمي على الكنبة أمام التليفزيون الذي كان مفتوحًا من قبل نزولي، برنامج تليفزيوني تناقش فيه المذيعة وضيوفها ظاهرة التحرش بالنساء. ثرثرة التليفزيون وظلام البيت إلا من النور المنبعث من الشاشة كانا ملائمين لخطف غفوة لا إرادية. هممت بإبداء رأيي في موضوع المناقشة الدائر على الشاشة، فلوَّحت لي المذيعة بيدها قائلة: «انت بتتكلم ليه؟ انت ميت». التفتُّ إلى صورة أمي المعلقة على

الحائط مندهشًا فباغتتني قائلة: «يا بني قالت لك انت ميت». تصدر الضيوف الشاشة وصرخوا فيَّ: «انت ميت ميت». جاءني صوت عم عبد الله من داخلي يضحك بصوت عالٍ ساخرًا مني وقال وهو يبدو معايرًا لي: «يا ميت.. يا ميت».

(٧)

فقدت الحياة معانيها بكل أدواتـهـا، صـارت غير ذات جـدوى، بطبيعتها وبما استجد عليها، استكثر الموت عليَّ الحياة، فألقى بي في طريق ما بين الحياة والموت، فلم أدرك الحياة بعيشها، ولم أستطِع رسم خواتيمها. وما الحياة إلا خواتيم، وما لها من قيمة إذا لم نحسن خواتيمها، فما مضى من عمري ليس إلا ذكريات، وما بقي لي من العمر، فمصيره أيضًا إلـى سلة الذكريات. فما الجدوى إذًا من الرغبة في الحياة والاستمتاع بها، ما دام كل شعور باللذة مصيره إلـى زوال؟ بل إنـه يصعب استرجاعه، فما الذي يعادل أول قطرة مني لفظتها في الثانية عشرة من عمري؟ ذلك الشعور البكر المفاجئ، الذي يفتح لك عالمًا ما كنت تدري أنه سيشغل على الأقل نصف ما تبقى من حياتك، إن لم يسيطر على

كل جوارحك وحواسك، إنه عالم الجنس الذي ما إن يهرم الجسد ويشيب الشعر، حتى يصير أطلالًا وذكريات شاحبة. فإذا كانت أقوى رغبة للإنسان ستصير إلى الذكريات، فما قيمة الحياة إذًا، إذا فقد الإنسان تلك الأفيونة العجيبة التي كانت مصدر متعته، وصار كائنًا جامدًا رتيبًا، ما قيمة الحياة بأكلها وشربها، إذا غاب مفعول ما أكل وشرب، وصار إلى الجوع والعطش؟ وما الذي أصاب المحرومين حين لم يتناولوا لحومها وأسماكها وفواكهها؟ فهم سواء مع الغني حين يعم الجوع على الجميع، فلحظة الجوع على من اعتاد الشبع بنفس طعم الجوع على من اعتاد الجوع.

كلها إذًا مسكنات تعيننا على مواصلة الحياة؛ فالحياة في مجملها مرض.. تئن الرغبة الجنسية بآلامها فنتناول مسكن النشوة، ويئن البطن بآلامه فنتناول مسكنات متنوعة من الطعام والشراب، وتئن النفس بآلامها فتهفو إلى الذهب والبنكنوت والسيارة، فنعالجها بما تتطلَّع إليه حسب القدرة على شراء العلاج، كلها مسكنات حتى يستشري ورم الحياة، وتغادر الروح الجسد بأمر ربها، فلا قيمة وقتها إلا للأعمال، وما الأعمال إلا خواتيم. وهبت نفسي لخواتيمي،

انقطعت عن عملي بالمدرسة، قاطعت المقهى والشيشة، صاحبت المصحف، أملًا أن أدرك خاتمته قبل انقضاء الأجل، مع حفظ ما تيسر من آياته، فأرتل في الآخرة كما أرتل في الدنيا، عدت للمواظبة على صلاة الجماعة، في وقت صار فيه المسجد هادئًا، من دون هيثم وصحبته، فما إن تنقضي الصلاة حتى يتفرق الجميع ويشرع أبو حسن وولداه في إطفاء الأنوار إيذانًا بانصراف الجميع وغلق أبواب المسجد، دون أي اعتبار منهم لروحي التي تهفو إلى السكون ليلة واحدة في المسجد، كما كان مع هيثم وصحبته. فكرت في البحث عن هيثم، تفاصيل مرضية عن عنوان بيته أتذكرها من أيام الدرس، ستساعدني بالطبع في الوصول إلى بيته بسهولة، فعزمت على الذهاب إلى هيثم، بعد خروجي من صلاة العصر، وجدت أمامي لوحة تحمل اسم «عطارة المسلم»، لم يحتَج الأمر للتخمين، هو محل العطارة الذي حكى هيثم لي عنه، وجدت أمه فتذكرت مشهد شجارها مع هيثم، بدا على وجهها آثار ما يقرب من عشر سنوات مرت على تلك المشاجرة، بعد إلقاء السلام سألتها عن هيثم، فصمتت للحظات وأمعنت النظر إليَّ ثم ردت:

- مين حضرتك؟

صمتُّ للحظة، ثم لقَّنني الوحي ردًّا لم أرتب له قائلًا:

- أنا صاحبه من مسجد الشيخ صلاح.

بدا عليها الارتياح فردت بسهولة:

- هيثم خرج في سبيل اللّه.

أيقنت لحظتها أنه لولا كوني من مسجد الشيخ صلاح لما صرَّحت لي بخروج هيثم في سبيل اللّه، فشكرتها وعرضت عليها قضاء أي حاجة من حاجاتها وانصرفت. فما إن بلغت نهاية الشارع حتى وقفت، موجهًا اللوم لنفسي على عدم سؤالها عن المسجد الذي خرج له هيثم في سبيل اللّه، حدثت نفسي بأنها فرصة لقضاء أيام مع هيثم وصحبته في المسجد الموجودين به أيًّا ما كان، عدت لأم هيثم فسألتها عن المسجد الذي خرج له هيثم، فتجهمت وجحظت عيناها وردت قائلة في عصبية:

- مش عارفة يا بني.

أدركت حينها مخاوفها، كوني غريبًا، وأنها لا تدري سببًا لسؤالي عن هيثم، وإن كنت أحمل له خيرًا أو شرًّا كالمضايقات الأمنية، فانصرفت في هدوء عازمًا على العودة له خلال أيام إن كان في العمر بقية، متمنيًا أن يمهلني الموت مهلة، حتى عودة هيثم ولقائه والخروج معه في سبيل اللّه، ولو مرة قبل انقضاء الأجل.

(٨)

وسط تلك الحياة الرتيبة التي لم تكن مملة، انتابتني آلام في أسناني، بدأت خفيفة يسهل تحملها، ثم تمادت بالتدريج حتى تملكت أعصابي، فلم أعد قادرًا على مواجهتها بالمسكنات. هواجس خائبة بأسباب الموت انتابتني لبرهة ثم سرعان ما تجاوزتها لعدم معقوليتها، فلم يسمع أحد من قبل عن مرض أسنان تسبب في موت إنسان. توجهت لعيادة دكتور أسنان، أعرفها من لافتتها المعلقة على ناصية أحد الشوارع المتفرعة من شارع ناهيا، التي تُبرز سهمًا يوجهك لاتجاه العيادة. سكرتير العيادة أربعيني أصلع عريض الوجه والجسم، قابلني مبتسمًا ومرحبًا مستخدمًا مفردات مفخمة مثل سعادتك ومعاليك، فعبرت عن جحودي وعدم رضائي عن ذلك الترحيب الممسوخ، وشرعت في السؤال عن الكشف فسجل

اسمي وتناول خمسين جنيهًا، انتظرت منه رد عشرين جنيهًا باقي قيمة الكشف، ففاجأني برد خمسة عشر جنيهًا، متعللًا بعدم وجود «فكة»، فعصرت جيوبي حتى أخرجت ثلاثين جنيهًا جمعتها من جيوبي، واستردت الورقة أم خمسين، التي ناولني إياها مستاءً زافرًا ضاغطًا على أسنانه. لم يمهلني الوقت لتأكيد ظنوني بأسباب ترحيبه وتفخيمه لي، وذلك عندما قام مريض خارج لتوه من غرفة الكشف بدس ورقة بخمسة جنيهات في يده، نال منها ما نال من عبارات «شرفتنا يا أفندم وألف سلامة عليك وربنا ما يحرمناش من حضرتك».. أسلوب رخيص لا أحبذه، بالإضافة إلى عدم جدوى منحه الرشوة كونه سكرتيرًا لا يقدم ولا يؤخر، والعبرة بالدكتور الذي يقدم خدماته مقابل الكشف، لكن سرعان ما خابت آمالي عندما شرع المرضى في دخول غرفة الكشف واحدًا تلو الآخر، بعد مناولته إكراميته، إما بتنازلهم كرهًا عن جزء من الباقي وإما بدسِّ ورقة نقدية في يده بعد الخروج، في حين كان يرمقني بنظرة حادة متوعدة مع كل مريض داخل أو خارج. حتى فاض بي الكيل، فواجهته منفعلًا مبديًا استيائي من تأخر دوري، فواجهني ببرود

واستعلاء قائلًا:

- دول حاجزين من بدري يا أستاذ.

كظمت غيظي واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، حتى رضي عني ذلك السكرتير اللعين، ونادى على اسمي متحاشيًا النظر في وجهي، تجاهلًا وتعاليًا منه. امتص الدكتور تلك الثورة التي كانت قد انتابتني، وذلك قبل حتى أن أشرع في الشكوى إليه من ذلك الكائن الأصلع العريض، فقابلني ببرود طبيب جراح وليس دكتور أسنان؛ فهو طاعن في السن أبيض اللون شعرًا ووجهًا، تسقط من عينيه نظارة عريضة، ولكنها تبدو قيِّمة، يبتسم ابتسامة تخدير، تحمل في طياتها حنان الأم واحتواء الأب، سألني في هدوء:

- خير يا أستاذ إبراهيم؟ ألف سلامة عليك.

شرحت له عن ألم أسناني، فشرع في الكشف، مشخصًا الحالة على أن ثمة ضرسًا ما يحتاج إلى حشو، واصفًا علاجًا لمدة ثلاثة أيام، على أن أعود بعدها لبدء جلسات الحشو. وعندما هممت بالسؤال عن التكاليف، أجابني بأن التفاصيل في الخارج، فخرجت

لذلك السكرتير وسلمته ورقة من الدكتور، وعلامات الاستياء تعلو وجهي، فرد في اقتضاب:

- مية وعشرين جنيه، هتدفعهم على تلات جلسات، هتبدأ بعد تلات أيام.

واظبت على العلاج، خلال تلك الأيام الثلاثة، وفيها كانت نفسي قد هدأت بنسبة ضئيلة ولكنها ملموسة، من التفكير في شبح الموت، فقد تملكني الغيظ ليوم كامل على الأقل من ذلك السكرتير وما بدر منه تجاهي، في حين أن مراحل الاستشفاء من الألم كان لها مردودها على هدوء النفس وراحة البال.

عدت للعيادة في موعدي بعد انقضاء الأيام الثلاثة، قبل وصولي للعيادة، وأنا ما زلت بالسلم، استرقت السمع لما يبدو شجارًا بين ذلك السكرتير اللعين وسيدة ما، وقد كان فعلًا، فوجدت سيدة بسيطة يبدو من هيئتها ما تحمله من هموم ومآسٍ، تحاول أن تقنع ذلك الحيوان أن تدخل للدكتور ليكشف على ابنتها من دون دفع قيمة الكشف، وتقسم له بأن الدكتور يشتري منها الخضار كل بضعة أيام، ويعرفها جيدًا ولن يعترض على عدم دفعها قيمة الكشف، فلم

يقتنع السكرتير حتى ألحت عليه بظروفها وظروف اليتامى الذين تكفلهم، فأمرها بالجلوس حتى يتبين أمرها حين تحين الظروف. ناولته أنا الأربعين جنيهًا قيمة أول جلسة، وأنا أتمنى أن أناوله قلمًا ساخنًا على أحد هذين الخدين «الملظلظين»، جزاءً لما قام به مع تلك المسكينة..

دخلت للدكتور خلال دقائق معدودة لأتلقى البنج سريعًا ثم أعاود الانتظار، كنت قد انتويت أن أبلغ الدكتور بالسيدة المسكينة التي تريد مقابلته، لكنه لم يمهلني الوقت؛ فبمجرد أن دخلت غرفة الكشف، أجلسني على مقعد الكشف، بنفس حنان الأم واحتواء الأب اللذين اتبعهما معي في الزيارة السابقة، وشرع في تجهيز حقنة البنج بيديه المسنتين المرتعشتين، فانتابني الرعب من تلك الرعشة، وقفزت الهواجس تقتلني.. حدثت نفسي أن أمراض الأسنان لا تقتل الإنسان، ولكن حقنة بنج خاطئة ربما تطيح به خارج حدود الحياة، ولكن بنج الأسنان خفيف لا يمكن له أن يكون مميتًا، ولكن ما المانع أن يخطئ ذلك المسن المرتعش مع شخص مريض بمرض الموت مثلي؟! فتلوت الشهادة تحسبًا لأى طارئ،

وتركت له فمي يعبث فيه كيف يشاء، حتى أنهى مهمته وطلب مني الانتظار دقائق بالخارج.

جلست على مقعد مقابل للسيدة المسكينة وابنتها، رقَّ قلبي كثيرًا لحالهما، هما من مظاليم الدنيا، مالت الدنيا عليهما، فاتخذتهما مُتكأً، فغفلت عن حق تلك الطفلة البريئة في وأد آلام أسنانها. الأقسى من ذلك كله أنه لا أحد من الموجودين بالعيادة رق قلبه وعرض مساعدتها، ربما رقت قلوبهم مثلي دون اتخاذ رد فعل حقيقي يخفف من آلامها.

لم يتطلب الأمر أكثر من دقائق معدودات حتى أخذت زمام المبادرة، تلك إذًا قسمة ضيزى؛ فأنا أنتظر الموت في حين أملك ثمن علاجي، بينما البنت المسكينة المقبلة على الحياة لا حول لها ولا قوة، وما الداعي لعلاج أسناني بينما تقف كل أعضائي على بُعد خطوات من التراب؟ سحبت ورقه بمائة جنيه من جيبي، تزيد قليلًا على الثمانين جنيهًا المطلوبة لاستكمال العلاج، وضعتها في يد السيدة المسكينة، واصطحبت بنجي معي وانسحبت من العيادة في هدوء.

(٩)

عالم ساحر ذلك الذي اكتشفته، بعدما أعطيت الصدقة لتلك السيدة المسكينة، إنه عالم البر والإحسان. أصابتني راحة وسكينة كتلك التي شعرت بها عند نومي في المسجد من قبلُ، عالم يمنحك إحساسًا بأنك حطمت كل الحواجز بينك وبين رضا اللّه عز وجل، إنه سحر الصدقة، طاعة يرق معها القلب وتصفو بها الروح. تشبثت جيدًا بتلك الفرصة، وانطلقت إلى عالم البر والإحسان.

كنت مدخرًا لما يقارب العشرة آلاف جنيه، قررت إنفاقها كلها في فعل الخير، فما الداعي لادخارها وأنا على مشارف البرزخ؟ ولعلَّ زيارتي لطبيب الأسنان قد كتبها اللّه عليَّ لأقتفي خواتيمي بالصدقات، فشرح اللّه قلبي لفعل الخير والصدقات، لتكون أفضل الخواتيم. تغيَّر نظام حياتي تمامًا، فاختفت نوبات الكآبة

التي كانت تنتابني، فأقبلت على الحياة بطعم الموت، صرت محبًّا ليومي وحياتي، ليس حبًّا في الحياة، وإنما لكونها أوقاتًا أدخر فيها من الخير ما يعينني على الحياة الآخرة. أبدأ يومي من بعد صلاة الفجر، التي صرت مواظبًا عليها في المسجد، فأعكف على إعداد كميات كبيرة من ساندويتشات اللانشون والبسطرمة والجبنة الرومي.. أصناف من الأطعمة لا يتذوقها الفقراء، قررت أن أمنحهم الفرصة لتذوقها، قبل أن أرحل من تلك الحياة، غير ضامن أن يمنحهم أحد من هذه الغابة التي تسمى الدنيا فرصة لتذوقها من بعدي، بالإضافة إلى الغرض الأساسي من سد رمق جوعهم. أعبئها في أكياس وأوزعها على عمال النظافة والعساكر الغلابة، وعلى كل من يقابلني من فقراء ومساكين. أذهب بعد تلك الجولة إلى دار أيتام قصدتها في شارع السودان، مصطحبًا تشكيلة من الحلويات، فيلتف الأطفال الأيتام حولي لتناولها، وكأني رجل أربعيني أو خمسيني حرمه الله من الإنجاب، ولست شابًّا في الرابعة والعشرين، كان أولى به الآن أن يكون مع خطيبته، يرسمون المستقبل ويتمنون زهورًا كهؤلاء الأطفال، كنت أشعر بالأسى

الشديد وينفطر قلبي لحال هؤلاء اليتامى، وكيف حرمهم الموت من آبائهم أو أمهاتهم، الموت نفسه الذي كان بوسعه أن يجعل لي أيتامًا في هذه الدنيا، لو كنت متزوجًا ولي ذرية أتركها من خلفي.

داومت على نفقاتي في أوجه الخير، حتى أوشك عقد العشرة آلاف جنيه على الانفراط، فانتابني الخوف من قرب لحظة الرحيل، حينها مرت بي غفوة من غفواتي، بينما كنت جالسًا في حديقة دار الأيتام، ممددًا قدمي مرخيًا جسدي في شمس الشتاء الدافئة، رأيت نسخة مستنسخة مني لرجل يوزع جنيهات على الأطفال أمامي، حتى قبض كفه على آخر جنيه، حتى انتزعه منه فجأة طفل من الأطفال أعرفه جيدًا، فانهار ساقطًا مغشيًّا عليه، ثم تبخر أمامي في صورة سحابة حلزونية، عدت لوعيي فأشار لي الشيطان بوسوسة مجنونة، أتباطأ في تبديد الجنيهات لتأخير لقاء الموت، ليس رغبة في الحياة ومغرياتها، إنما خوفًا من رهبة الموت، والرغبة في وقت كافٍ للإعداد للرحيل، كانت نَفسي أضعف من أن ترفض ذلك العرض الشيطاني، فشححت يدي حتى أمسكتها تمامًا عن الإنفاق، مع وصولي لآخر ألفي جنيه. فعادت الحياة إلى رتابتها،

من المسجد للبيت ومن البيت للمسجد، مستعينًا على نفقاتي بعد انقطاعي عن العمل بإيراد البيت، مانعًا نفسي من الاقتراب نهائيًّا من الألفي جنيه، التي تقف حاجزًا بيني وبين الموت.

في هذا الجو المشحون بالملل، صنعت كوب نسكافيه لأتناوله في البلكونة مستشرفًا أحوال الناس، فوجدت سيارة «ميكروباص» واقفة عند باب مسجد الشيخ صلاح، ومجموعة من الملتحين يقومون بإنزال حقائب وبطاطين إلى داخل المسجد، أول ما طرأ إلى ذهني هيثم، تهللت أساريري؛ فأنا أحتاج إلى أن أفضفض له بالكثير، علَّه يخرجني من تلك الدوامة التي لم يعد لديَّ حل للخروج منها، هممت بالنزول مسرعًا حتى وصلت إلى المسجد، فلم أجد هيثم بينهم، سألت أحدهم عنه فأخبرني باقتضاب أن هيثم، ولله الحمد، تزوج وذهب للعمرة مع زوجته، أذهلتني الفكرة فتوقفت أمامها شاردًا فيها، شهر عسل في الرحاب المقدسة، محظوظ هيثم، كل حياته في طريق الطاعة والإيمان، وليس متخبطًا مثلي. شعرت بحاجتي لهيثم أكثر من حاجتي له قبل السؤال عنه ومعرفة مكان وجوده الآن، صرت متشوقًا له ليدلني على الطريق؛ فهيثم

يملك مفاتيح السكينة والاطمئنان، فصار هيثم الرقم الأصعب في معادلة حياتي، أو ما تبقى منها إن جاز التعبير، وما يدريك علَّه يكون المرشد، ويأتيني من بيت اللّٰه الحرام، بما يخرجني من الظلمات إلى النور. فازداد تعلقي به، حتى إنني مللت المكوث مع صحبته من أول ليلة، في ظل عدم وجوده، فانقطعت عن المبيت معهم، أعلم جيدًا أن المساجد للّٰه، ولكن صحبة هيثم لم يجذبوني، لم يكن فيهم من يقترب مني كما فعل هيثم، كل في شأنه، صلاته وذكره لحاله.

(١٠)

للموت هيبة ولو بلغت حسناتك عنان السماء، فما كانت الثمانية آلاف جنيه التي أنفقتها في أوجه الخير شفيعًا لي لتقبُّل فكرة انتظار الموت، فأهون شيء في الموت مفاجأته وأصعب شيء انتظاره، حتى إن كان انتظاره يمنحك الفرصة للإعداد للرحيل؛ فالموت سيظل كائنًا غامضًا تصيبه الحقائق وكذلك يعتريه التهويل، فكيف للكائن البشري، الذي تستهويه الحياة بكل مفاتنها ومغرياتها، أن تتحمل نفسه انتظار اللحظة التي سيخطفه فيها الموت؟ فلم يكن بمقدوري أن أمضي في إنفاق العشرة آلاف جنيه وأنا أتوقع أن يخرج لي الموت من الباب الذي سأنفق فيه الجنيه الأخير.

تلك الصفقة الشيطانية، التي أبرمها معي إبليس ماهر، عالم ببواطن النفس البشرية، وما تهابه في الموت وتبعاته، فدفعني

إلى الهروب من كل طريق أحدس الموت في نهايته، فمن وقت أن انقطعت عن الإنفاق في أوجه الخير، وشيئًا فشيئًا ابتعدت مرة أخرى عن صلاة الجماعة، وبمرور الوقت وفي مفاجأة مدوية لشيطاني وحدسي وغفواتي، انقطعت عن الصلاة كلها.

تحياتي أيها الإبليس اللعين، قبعتي أرفعها احترامًا لك أيها الحدس الجليل، أما أنتِ أيتها الغفوات فأنحني لكِ احترامًا وتقديرًا.. فقد أديتم أفضل أدواركم، مع أضعف وأتفه إنسان على وجه الأرض، أرعبتموه بالموت، فأرهبتموه من طريق الهدى. فلن أواظب على الصلاة وأنا أعرف أن طريق الهدى ينتظرني في آخره ملك الموت، ولن أنفق أموالي في سبيل الله ما دام إنفاقها تبديدًا لأوقاتي في تلك الحياة.

(١١)

استسلمت لحياتي الجديدة كرهًا وطواعية، حياة اللاشيء، اللاخير واللاشر، فقط أحيا الحياة كما تأتي. بددت كل أحلامي التي رسمتها من قبلُ، من حلم النجاح الوظيفي والزوجة الجميلة والأسرة السعيدة، حطَّمت أحلامي القديمة كلها، ولم أرسم أحلامًا جديدة بعدها.

ليتني لم أزُر والد سيد المريض، أو ليتني صليت تلك الجمعة في بولاق وذهبت لبيت سيد بعد الصلاة، فما كنت حملت نعش جابر ولا صليت عليه، فما كان لهذه الهواجس أن تتملكني، فأصير بها أقرب إلى الكفر، أصر على المعصية كالأصم الأعمى. خطر إليَّ الذهاب إلى طبيب نفسي، وانتويت ذلك، غير أني سوَّفت الفكرة فزال اقتناعي بها. وجدت متنفسي في قضاء وقتي على المقهى

وتدخين الشيشة، التي صرت شرهًا عليها، واعتدت على قضاء أغلب يومي معها، لأكثر من ثلاث مرات، خصوصًا فترة المساء التي كانت لا تزيد على ساعة حتى بدأت تزيد تدريجيًّا، من وقت أن تعرفت على محمد رمضان، يبدو اسمه وكأنه اسم مركب؛ فالجميع يناديه هكذا. تعرفت عليه يوم عرض عليّ مبارزتي في عشرة طاولة، وذلك في إحدى المرات التي ناداني فيها الشوق إلى حجر معسل قبل الفجر بقليل، في حين كان المقهى خاليًا إلا مني أنا وهو والعاملين المشتغلين في التنظيف نهاية الليلة، فلبيت طلبه وقتها لعدم إحراجه، حتى اقتربنا من بعض تدريجيًّا، وصرنا على موعد يومي للعب الطاولة وتحطيم الأرقام القياسية في شرب أحجار المعسل..

في الوقت الذي ارتفع فيه عدد صداقاتي في المقهى عن طريقه؛ فقد كانت له قاعدة معارف كبيرة، كونه اجتماعيًّا ويحاكي الجميع، حتى المعلم جمعة، صاحب القهوة، كان صديقًا مقربًا من محمد رمضان، ويمنحه أحيانًا شرف الجلوس إلى كرسي مجاور لكرسيه خلف المكتب الصغير الذي يستقبل فيه مارك المشاريب. شيئًا

فشيئًا كوَّنت دائرة معارف القهوة، أتجمع معهم للعب الطاولة والدومينو «المرابعة» كما يسمونها، هذا وإن ظل رمضان، وهو الاسم الذي تعوَّدت مناداته به، الأقرب لي من بين كل هؤلاء الذين كانوا يمثلون لي أصحاب قهوة لا أكثر؛ فقد كان رمضان يبدي اهتمامًا بي واحترامًا وحرصًا على توطيد علاقته بي، الأمر الذي دعاني إلى التوجس منه، فساورتني الشكوك حوله من رغبته في التقرب مني، لكن سرعان ما تبددت تلك الشكوك، فليس لي أخت يحاول أن يجعلني «كوبري» للعبور إليها، كما أن ريبتي تبددت من أن يكون طامعًا في استغلالي ماديًّا أو حتى السطو على بيتي، حين تأكدت، بعد أيام قليلة من معرفتي به، أنه لا يعلم شيئًا عن ملابسات وحدتي في بيتي، أو امتلاكي بيتًا وأراضي تُدر عليَّ دخلًا. فتأقلمت على صداقتي مع رمضان، خاصة لما كان يبديه من تقدير لشخصي، فقد كان لا يناديني إلا بـ«أستاذ إبراهيم»، على الرغم من انغماسنا في صداقتنا، وذلك لما كان يستقيه مني من ثقافة ومعلومات، كانت شبه معدومة عنده؛ فدبلوم الصنايع الذي حصل عليه وانغلاق مخه على بيع وإصلاح الموبايلات في المحل الذي يمتلكه،

جعلا منه غائبًا عن أمور كثيرة من حوله، فكان يسألني عن دور مجلس الشعب مثلًا وعن الوزراء وعواصم الدول، وكذلك معلومات في التاريخ، مثل: «هو مين اللي حفر قناة السويس؟ وهو مين ده محمد نجيب اللي بنسمع عنه إذا كان جمال عبد الناصر اللي عمل الثورة؟».. فكان يجد عندي إجابات لكل ذلك، وهو الأمر الذي جعل مني الأخ الأكبر بالنسبة له، على الرغم من فارق السنتين البسيط في العمر بيننا. هكذا سارت علاقتي بمحمد رمضان، الذي صار الصديق الأقرب لي، على الرغم من فارق التعليم ومستوى التفكير بيننا. ولكن على الرغم من اقترابي منه واقترابه مني، فإنني لم ألمِّح مجرد التلميح له حول ما أصابني في الأسابيع التي مضت، لم أشأ أن أظهر أمامه بمظهر الشاب المهزوز الضعيف، في الوقت الذي صنع هو حولي هالة من التوقير والاحترام، لم تهتز أو تذُب باقترابه مني. وعلى العكس مني كان هو أكثر إصرارًا على إشراكي في أمور حياته، مشاكله مع أمه الناتجة من خلافاتهما الدائمة حول إيراد محل الموبايلات، الذي باعت ذهبها لتفتحه له بعد أن عجز عن إيجاد فرصة عمل بعد الدبلوم، وكذلك مشاكله العاطفية

وعلاقاته الفاشلة التي لا تستمر أكثر من أيام معدودة على أصابع اليد، فيجد مراده في النصائح التي أسديه إياها، والتي كنت أقصد فيها أن تكون على مستوى تقديره واحترامه لي حتى إن لم تكن معبرة عن رأيي الشخصي؛ فكنت أحثه على طاعة أمه وتحملها حتى لو جارت عليه، أما مشاكله العاطفية فكنت أنصحه دومًا بإعمال عقله وحساب الأمور بموضوعية، بالإضافة إلى توجيهاتي له في إدارة محل الموبايلات، الذي كنت أستقطع بضع ساعات يوميًّا للجلوس معه فيه، بعدما لاحظت وفرة العنصر النسائي في زبائن المحل، فكنت أحجز مقعدي بجواره في الساعات الأخيرة قبل إغلاق المحل في منتصف الليل، أختلس النظرات لزبائنه من الجنس الناعم، ثم نغلق المحل ونقصد المقهى بعد شراء أرغفة من الكبدة والسجق، ننهمك بعد تناولها في شرب المعسل ولعب الطاولة حتى الفجر، الذي لم أعد حريصًا على صلاته، فأنام من شروق الشمس حتى العصر. لم يعد يهمني لا الموت ولا الإعداد له، وانخرطتُ في حياتي الجديدة مع محمد رمضان.

(١٢)

غالبًا ما تحمل الصدفة مفاتيح الحب، فتكتب نذر علاقات عاطفية مشتعلة. فلولا أن قطعت ترددي ذلك اليوم بالدخول إلى مطعم الوجبات السريعة، في طريق عودتي للبيت بعد دفع فواتير التليفون المتأخرة، لما كانت البهجة عرفت طريقها إلى قلبي، حين مرت نسرين بجواري، في أثناء التهامي ساندويتش الشيش طاووق، فارتجفْتُ وارتعشت يداي حتى كاد الساندويتش يقع من يدي، فطرحته على الطاولة وسحبت نفسًا عميقًا، أتبعته برشفات سريعة من المشروب الغازي، مذيبًا بقايا الطعام التي انحشرَت في حلقي في اللحظة التي لمحت فيها نسرين، ما يقرب من دقيقة قضتها نسرين أمام الكاشير ملاصقة لصديقة لها لم أكن أعرفها، استرجعت فيها آخر كلماتي لها، التي دوَّنتُها في دفتر أحضرته آخر

يوم في امتحانات السنة النهائية، لنكتب لها جميعًا كلمات للذكرى، فشاء القدر أن تكون كلماتي آخر كلمات الجميع، فكتبت لها: «كثيرون من نقابلهم في الحياة، ولكن قليلين من تتوقف عندهم الحياة»، وفعلًا توقفت حياتي حينها عند نسرين، التي لم نكن نراها في الكلية إلا أيام الامتحانات؛ حيث كانت تقضي بقية العام مع أهلها في الكويت، طوال سنوات الكلية الأربع وأنا أنتظرها كل عام، لأتقرب إليها معبِّرًا عن اهتمامي بها، فأجمع لها المذكرات وأراجع معها المواد في التليفون، وصباح يوم الامتحان قبل الدخول إلى اللجنة. كانت قوية بالقدر الذي يجعلني أتراجع عن كل خطوة خَطَوْتُها للتعبير عن حبي لها، فصرَّحَت لي أكثر من مرة أنها لا تنوي الارتباط عاطفيًّا بأي شخص كان، كونها على عهد مع أهلها بعدم الانخراط في مثل ذلك خلال الفترة التي توجد فيها في مصر كل عام، كانت قد اختفت من حياتي بعد الكلية وإن ظلت ذكراها وهواها يلازمانني، تمنيت كثيرًا أن أقابلها ولو صدفة، لم تترك لي أي دليل لتتبعها، لا «إيميل» ولا «فيس بوك».. بحثتُ عنها فيه كثيرًا دون جدوى، أما رقم تليفونها فكانت تغيره كل عام في أثناء وجودها

في مصر، كل ما كنت أعرفه عنها أن محل إقامتها في مصر يقع في شارع جامعة الدول العربية، فكنت المشجع الأهلاوي الوحيد الذي ينزل للاحتفال مع جماهير الزمالك في انتصاراتهم القليلة التي يقيمونها في شارع جامعة الدول، علِّي أصادفها أو ألمحها، ليتني لم أخُن النادي الأهلي لو كنت أعرف أني سأقابلها يومًا في مطعم وجبات سريعة.

اتسعت عينا نسرين حين التفتت بينما كانت تدس باقي الحساب في حقيبتها الأنيقة، وذلك حين التقت عيناها عينيَّ، فاتجهت نحوي بخطوات متباطئة والدهشة الباعثة على السرور تعلو كل حواسها، بينما حركات شفتيها تتمتم همسًا:

- إبراهيم! مش معقول!

حين وصلت إليَّ كنتُ قد وقفت مشدود البنية، محاولًا خلسة فرد قميصي الذي كان قد تكوَّم على نفسه في أثناء التهام الساندويتش، فمددت يدي مبتسمًا وبلعت ريقي بصعوبة حين قلت لها:

- مش مصدق عينيَّ.. نسرين!

بدا حديثها خفيفًا أكثر مما كانت عليه ذي قبل، حين قالت:

- انت فين يا بني؟ والله بتيجي على بالي كتير.

تنحنحت قائلًا:

- انتي بقى على بالي دايما.

فشهقت صديقتها مبدية إعجابها بما قلتُ، في الوقت الذي غمزت فيه بعينها لنسرين، فتلعثمت نسرين محرجة. وافقتا على دعوتي للجلوس إلى طاولتي، وتبادلنا عبارات الترحيب. قدمتني إلى صديقتها وقدمتْها لي، ولكن من فرط انشغال كل حواسي بنسرين، لم أتبيَّن الاسم الذي قدمته نسرين إذا كان نورهان أو ميرهان، لم يهمني أمر صديقتها وإن ظلت «تبحلق» فيَّ أنا ونسرين. تبادلنا السؤال عن حال كل منا، وعرفت أنها عادت مع أهلها للاستقرار في مصر، وتعمل الآن مدرسة في مدرسة دولية بمنطقة المريوطية، واضطررت للكذب عليها بالقول إنني ما زلت أعمل بالمدرسة. بعد حديث قصير استأذنت بالانصراف بعدما تبادلنا أرقام الهواتف، عند قدوم صديقتين أخريين كانتا على موعد معهما، وبدورهما لم

تستطيعا منع نظرات الاستفسار عني.

انطلقت بالشارع والفرحة تغمرني، أدندن بالأغاني مبتهجًا، حتى إنني قطعت المسافة من شارع جامعة الدول إلى ناهيا مهرولًا قافزًا على الأرصفة، قاطعًا سلم شارع ناهيا عدوًا. مررت على محمد رمضان في محله، فلاحظ حالة السعادة التي تبدو على وجهي، فبادر بالاستفسار، إلا أنني آثرت الكتمان، منتويًا ذلك حتى يتحقق مرادي بنيل نسرين. أمعنت في إظهار نشوتي بطلب وجبة كفتة وفراخ مشوية لي ولرمضان على حسابي، ناسيًا الساندويتش الذي تناولته منذ قليل، فازدادت حيرته من أمري، وازداد حرصي على الكتمان.

* * *

ظل قلبي معلقًا بالهاتف، انتظارًا لمكالمة من نسرين بعد رجوعي للبيت، حتى خطرت لي فكرة أن أبادر بالاتصال بها بغرض الاطمئنان عليها، نفذت الفكرة واتصلت، فلاقت منها القبول والترحاب كوني حريصًا على الاطمئنان عليها، لم تستغرق المكالمة وقتًا طويلًا؛

حيث لم أجد كلامًا أحكيه، وذلك من فرط قلقي وتوتري من وقت أن قابلتها، بالإضافة إلى التكتيك في رغبتي ألا أكون خفيفًا معها في بداية علاقتنا الجديدة، حتى لا تكرر هروبها مني الذي اعتادت عليه أيام الجامعة، غير أنها فاجأتني بإنهاء مكالمتها بقول: لا إله إلا اللّه. فرددت عليها: محمد رسول اللّه، منشكح الوجه؛ فقد منحتني الإشارة للاستمرار في العلاقة.

تعددت مكالماتنا فيما بعدُ، حتى ملأت نسرين حياتي بهجة، غير أن مشكلة تعطلي عن العمل ظلت تؤرقني، ولم تفلح محاولاتي في العودة إلى المدرسة، بعدما استبدلوا بي مدرسًا جديدًا، فاستمررت على كذبي معاهدًا نفسي على البحث عن عمل جديد.

تمادينا في العلاقة، وبدأنا في ضرب مواعيد غداء وعشاء وكافيهات. فاضطررت إلى مد يدي على الألفي جنيه المتبقية من «فلوس الخير»، فعاد الهاجس يطاردني من بعيد، أغلقت الباب سريعًا، ودسست ألف جنيه كانت قد تبقت منها في ظرف وأغلقته، ثم رميت به أعلى الدولاب، ومسكت يدي حتى جمعت الإيجار أول الشهر، فدفنت ذلك الهاجس حيًّا مع النقود فوق الدولاب، فهذا

خير لي من أن أصارعه فينغِّص عليَّ حياتي التي صارت أكثر إشراقًا منذ دخول نسرين إليها.

شيئًا فشيئًا بدأت أصرح لها بالكلمات التي تُنسج على أبواب مدينة الحب، مثل: «وحشتيني.. كنت بفكر فيكي طول الليل»، فكانت تكتفي بابتسامة، ولم أستطِع أن أقول كلمة «بحبك» صراحة، ما دامت تتدلل عليَّ لمجرد كلمات البدايات. حتى كانت أول لمسة يد لأنثى في حياتي كلها، انتابتني على أثرها سخونة عارمة سَرَت في جميع أجزاء جسمي، وكادت نسرين منها تقع مغشيًّا عليها، حين أمسكت يدها متعللًا بحمايتها من الوقوع عند تعثرها على سلالم مطعم مرتفع، فحاولت أن تسحب يدها متمنعة ومستسلمة في الوقت نفسه، فترَكَتْ لي فعل المقاومة، فقبضت قبضة خفيفة على ما تبقى في يدي من أصابعها حين همت بسحب كفها، تاركة لي أصابعها ألهو فيها كما أشاء وأصنع فيها صنع الحب، الذي خارت معه قواها، فالتزَمَتْ الصمت وارتخت جفونها، قابضةً على شفتيها، فاقتربت منها وهمست في أذنها: «بحبك». فكان رد فعلها صامتًا ولكنه بألف كلمة، حين مدت يدها الأخرى فقبضَتْ بها على

يدي الممسكة بأصابعها، وذلك لثوانٍ لم يمنحنا وجودنا في الشارع أكثر منها.

ذابت بيننا كل السدود منذ ذلك اليوم، فدخلنا مدينة الحب وعشنا في كل أرجائها، فبلغت السعادة معي منتهاها. وبدأ حديثنا يدور مع الحب حول التخطيط للمستقبل القريب والترتيب لطلب يدها من أهلها، وبدأت في التمهيد لها لموضوع تركي العمل بالمدرسة، فكذبت كذبة قصيرة المدى بأنني لا أجد راحتي النفسية في العمل مدرسًا براتب ضئيل، وأرتب لترك العمل في التدريس، وأنني أفكر في بيع أرض البلد وافتتاح مشروع خاص وشراء سيارة، خاصة بعدما زادت حاجتي للسيارة بعد ارتباطي بنسرين، فوجدت فكرة المشروع الخاص قبولًا كبيرًا لدى نسرين، وكذلك فكرة شراء السيارة. لم أستهلك وقتًا لشراء السيارة؛ إذ توجهت نحو بلدتنا بميت غمر، واستطعت خلال يوم واحد بيع قيراطين بقيمة أربعين ألف جنيه، من الفدان ونصف الفدان التي أملكها، وعهدت إلى عمي بالبحث عن مشترٍ لباقي القراريط على دفعات، على أن أعود له لإتمام إجراءات بيع كل دفعة من القراريط. انتظرت بعدها

لأكثر من أسبوع، لم يأتِ فيه أي مُشترٍ، فعقدت العزم على دفع الأربعين ألفًا مقدمًا لسيارة بالتقسيط؛ حيث إنني متلهف لإنهاء بهدلة التاكسيات مع نسرين.. وسرعان ما أنهى معرض السيارات إجـراءات التقسيط وتسلمت السيارة بعدما وقعت على شيكات بقيمة ما تبقى من ثمن السيارة.

(١٣)

قبضتُ بكلتا اليدين على تلك السعادة، التي بلغت نصابها بالحب والسيارة الجديدة ووقتي الذي أقضيه مستمتعًا مع محمد رمضان وشلة القهوة. لم يعرف الملل طريقًا إليَّ، بل كانت الأيام تمر مرور الريح. لم يجد شيطاني ولا حدسي ولا غفواتي أي مدخل إلى نفسي، فقط وساوس خفيفة أطرحها جانبًا بمجرد ظهورها، لا مكان عندي إلا للحب والأمل.

وفي مساء يوم خميس ما، عرض عليَّ محمد رمضان سهرة قال إنها جديدة عليَّ وستروق لي، بالإضافة لكونها احتفالًا بالسيارة الجديدة، أخفى عليَّ تفاصيل السهرة باعتبارها مفاجأة. خرجنا قاصدين طريق منطقة بين السرايات كما أمرني رمضان، ثم طلب مني الوقوف في الطريق، انتظارًا لصديقين له سيقضيان

معنا السهرة، حاولت الاستفسار فامتنع عن أي تفاصيل، حتى جاء الشابان حاملين أكياسًا سوداء، بدأت أتوجس منهما ومن الأكياس التي يحملانها، بطبعي طرحت شكوكًا كثيرة، حتى وصلنا إلى المكان الذي وصفه رمضان: بيت قديم في حارة متفرعة من حارة متفرعة من شارع متفرع بدوره من الشارع الرئيسي، ظهرت عليَّ علامات التوجس في أثناء نزولي من السيارة، فقابلها رمضان بابتسامة وغمزة عين وإيماءة تحمل معنى «دلوقتي تعرف». دخلنا البيت وطرَق رمضان باب شقة في الدور الأرضي تحت السلم، فتح الباب رجل أربعيني ضئيل الجسم، تتصدر مشهده غرز مَطاوٍ حفرت خريطتها في وجهه، والشعر الكثيف المهلهل يغمر ذقنه ووجهه من كل جانب. جلسنا في الصالة على كنبة بلدي، بينما جلس هذا الرجل الذي ينطق وجهه بالإجرام على الأرض، بعد أن همرنا بعبارات الترحيب والتبجيل: «أهلًا بالباشوات.. نورتونا.. ده إحنا زارنا النبي»، ثم فتح الأكياس وأخرج ما فيها، صدمتني زجاجات الخمر المتنوعة التي أخرجها من الأكياس، انتفضت وقمت من مكاني جاذبًا محمد رمضان من يده إلى الطرقة المؤدية إلى

الغرفة الوحيدة الملحقة بالبيت، نهرته بشدة وطلبت الانصراف، حاول تهدئتي، مؤكدًا أن الأمر لا يتعدى زجاجات الخمر ولا مكان لأي مخدرات، كان محمد رمضان متفهمًا لخوفي، ما قد يدفع بنا إلى المساءلة القانونية؛ لذلك شدد على عدم وجود حشيش أو بانجو، ثم قال لي: «لو مش عاوز تشرب ما تشربش، واصبر على ما آخد كاسين بس ونقوم». وما إن هممنا بالعودة إلى تلك الغرزة التي أنشأها أبو سارة، صاحب الشقة، كما عرفوني على اسمه، حتى سمعنا طرقًا على باب الشقة، أفزَعَنا جميعًا إلا «أبو سارة»، الذي نهض لفتح الباب مبتسمًا هادئًا، فدلف شاب ذو جسم رياضي حليق الرأس، يحمل كيسًا أسودَ آخرَ، عرفنا أنها أول زيارة له لبيت «أبو سارة» وأنه جاء من طرف شخص ما وصف له طريق «أبو سارة» لشرب الخمر التي أحضرها، سلم علينا بتعالٍ واضح وأخذ مكانه على الكنبة، بينما شرع أبو سارة في فتح زجاجات الخمر. تهامست مع محمد رمضان، وعرفت أن «أبو سارة» يفتح بيته للراغبين في الشرب مقابل مشاركتهم الشرب مجانًا. بدأ أبو سارة في صب كأس صغيرة، أكبر قليلًا من فنجان القهوة، احتساها على شربة

واحدة، ثم شرع في صب كأس يقدمها لأحد الجالسين فيتجرعها، ثم يعيدها لـ«أبو سارة» ليملأها لمن يأتي دوره، حتى جاء دوري بينما كنت جالسًا على طرف الكنبة، قدم لي الكأس فرددت بأدب:

- شكرًا.

ضجت الصالة بالضحك، فاشتَطتُ غضبًا ولوحتُ بكف يدي تجاه «أبو سارة» مشيرًا بالرفض، فتغير وجهه الإجرامي فجأة فصار أكثر إجرامًا، واتسعت رقع المطاوي المضروبة في وجهه، وصاح قائلًا:

- بقولك اتفضل، إيد «أبو سارة» ما ترجعش.

تكهرب الجو وتناثرت عبارات من أفواه الحاضرين: «هدِّي نفسك يا (أبو سارة)، مِد إيدك يا أستاذ، حقك علينا يا كبير»، ثم لكزني رمضان في كتفي، في إشارة إلى ضرورة الاستجابة لفرمان «أبو سارة».

مددت يدي مرتعشًا متناولًا الكأس، ثم رفعتها إلى فمي بعد أن أمعنت النظر في الكأس ومحتوياتها، فأفرغتها في فمي بسرعة،

رشفة واحدة، فاستقبلت رئتاي كتلة من النيران، مصحوبة بسحابة دخان شعرت بها في جوف رقبتي، ثم جاء دوري لمرتين أخريين فعلت فيهما الفعل الصامت نفسه الذي فعلته مع الكأس الأولى، وقبل أن يأتي دوري في الكأس الرابعة، كانت عيناي قد بدأتا تدوران حول نفسهما، واشتعل رأسي مفرغًا الدخان الذي شعرت به يخترقني من قبل، فاتَّكأْتُ على محمد رمضان، فأسرع بي إلى الحمام فأفرغت ما في بطني، ثم استندت على رمضان فذهب بي إلى غرفة النوم الوحيدة بالبيت التي تطل على الصالة مباشرة، وطرحني على الفراش، بعد أن استأذن «أبو سارة» الذي كان منهمكًا في صب وشرب المياه، فرد قائلًا: «خد راحتك، أنا طردت العيال وأمهم علشان القعدة الحلوة دي».

فجأة تكهرب الجو في الصالة، فتركني رمضان على سريري، محاولًا تهدئة المشادة الكلامية التي اشتعلت فجأة بين «أبو سارة» والشاب حليق الرأس، وذلك حين ركز أبو سارة لفترة ممعنًا النظر في الشاب محاولًا تذكر أين رآه من قبل، ثم قال:

-شفتك فين قبل كده؟ شفتك فين قبل كده؟ أيوه أيوه..

حضرتك الظابط اللي...

وقبل أن يكمل أبو سارة جملته كان الشاب الذي عرفنا وقتها أنه ضابط قد تجهم وجهه واشتاط غضبًا وقال في عنف:

-خليك في حالك، ما تتكلمش ولا كلمة.

انخرس أبو سارة ووضع لسانه في فمه، فندمت حينها أشد الندم على انصياعي لأمره حين أمرني بشرب الكأس الأولى ما دام بهذا الجبن وكان بإمكاني النيل منه. استقر رمضان في مكانه بالصالة بعد هزيمة «أبو سارة»، ليلحق بنصيبه من تلك الوليمة التي من الممكن أن يفتك بها هؤلاء قبل عودته إلى مكانه.

اختليت بنفسي على ذلك السرير الذي يكاد ينطق برائحة عرق «أبو سارة» النتنة، فازددت نفورًا من تلك السهرة اللعينة، فانتبهت فجأة مذعورًا على جرس تنبيه من ذاكرتي، سمعت من قبلُ أن شارب الخمر يظل فمه نجسًا أربعين يومًا، ارتجفت وارتعشت أطرافي، ياللمصيبة!! أربعون يومًا سأقضيها على نجاستي، فارتخت جفوني

وغفوت، فشعرت بشيطاني يرقص فوق رأسي مهللًا ضاحكًا قائلًا:

– هتموت نجس يا روح أمك.

فازدادت نبضات قلبي سرعة شعرت معها أنه سيتوقف، عدلت من نومي إلى الوضع جالسًا ساندًا يديَّ على السرير خلف ظهري، أمعنت في التفكير بسرعة تعادل سرعة نبضات قلبي، حدست الأمر سريعًا، فقد كُتِبت عليَّ تلك السهرة حتى أتبوأ مقعدي من النار، جزاءً لتركي طريق الطاعة والجنة، تبًّا لك يا رمضان يا حليف الشيطان، ثكلتك أمك يا «أبو سارة» يا يد إبليس وذراعه على الأرض، الله يحرقكم يا أصدقاء محمد رمضان، دفعتم ثمن زجاجات الخمر فقطعتم تذكرة ذهابي إلى جهنم.

* * *

غادرت غرفة «أبو سارة» متجهًا نحو باب الشقة مسرعًا، بعد أن أبلغت محمد رمضان، بعصبية شديدة في كلامي، أنني سأخرج لأستنشق هواءً نقيًّا، أدَرتُ مفتاح السيارة وانطلقت نحو البيت، خففت من سرعتي خشية أن يصيبني حادث يدفع بي إلى غيابات

الموت بفمي المدنَّس، لم أتوقف عن قول «لا إله إلا اللّه»، لتكون لي شفيعًا كآخر كلمات إن أصابني الموت على حالتي النجسة. عدَّلت فجأة من طريق البيت عند وصولي إلى بولاق، قصدت بيت هيثم مستنجدًا، ناديت عليه من الشارع الخالي، في الوقت الذي رفع فيه المؤذن أذان الفجر، انشقت الأرض فجأة عن الرجل نفسه الذي سألته عن هيثم آخر مرة في مسجد الشيخ صلاح، أخبرني أن هيثم سافر للعمرة مرة أخرى مع أمه وزوجته.

(١٤)

أي شيطان هذا لعنة الله عليه؟! ضربني فأصابني في خواتيمي. وأية غفوات هذه؟ رسمت صورها بدقة فنغَّصت عليَّ حياتي. وأي حدس هذا؟ كتب عليَّ هواجسه فأغرقني في بحور الظلمات. لم أكن أتصور أن شيطاني وحدسي وغفواتي على هذا القدر من التنظيم والتربص بي، تركوا لي حبل الحياة، فاطمأننت لها بما حملته لي من سعادة وراحة بال، حتى التف حبلها حول عنقي، قاذفًا بي إلى ميتة السوء، مدنس الفم. انسَحبْتُ إلى داخل نفسي انسحابًا كاملًا، حاملًا مصيبتي، مستيقنًا أنه عليّ وحدي مواجهتها، في معركة خاسرة، الموت فيها أمامي والدناسة خلفي راسخة ملموسة، فتُهتُ عن بوابة الخروج. كُتِبَت عليَّ مصيبتي في خواتيمي، فصرت معلقًا بمعجزة من السماء، تكذب حدسي وتؤخر رحيلي إلى ما بعد

الأربعين يومًا، التي سأظل فيها على دناستي. فكُتِبَ عليَّ السير في درب من دروب الكفر، فعليَّ أن أصارع الموت، أهرب منه حتى أعبر تلك الأربعين يومًا المشؤومة، في صراع ضد العقل والدين، فمن ذا الذي يملك مقاومة الموت؟ فالموت إذا جاء فلا راد له، ولكنها نفسي بضعفها ومرضها، صممت على التشبث بالنجاة من ميتة السوء، بالهروب من الموت وأسبابه، غلَّفْتُ نفسي بمعايير الأمان خوفًا على حياتي، فاتخذت من معايير الأمن والأمان أسلوبًا لحياتي، أفحص أي سلك كهربائي جيدًا قبل وضعه بـ«الفيشة»، نوبات فحص دورية على مفاتيح البوتاجاز والأنبوبة لضمان عدم تسرب الغاز، تدعيم باب الشقة بترابيس إضافية منعًا لأي محاولة سطو قد أدفع حياتي ثمنًا لها، أما عن نزولي إلى الشارع لقضاء بعض حاجاتي، فكان الخروج بحساب، ممنوع الخروج في وقت مبكر أو متأخر هربًا من أي سطو مسلح في حال كان الشارع خاليًا، السير بحرص وتبديل النظر بين الأعلى والأسفل لمفاداة سقوط ما قد يهشِّم رأسي أو سقوطي أنا في بلاعة تخنقني، والأهم من ذلك كله تفادي الشِّجار مع أي شخص فيدفعه الشيطان لقتلي، وكذلك

الإسراع في الابتعاد عن أي مشاجرة أو حتى تراشق، تفاديًا لأي رصاصة أو ضربة مطواة قد تخطئ طريقها فتصيبني فتوقف قلبي أو تحطم رأسي.

هجرت شلة القهوة ومحمد رمضان، الذي حاول الوصول إليّ بعد تلك الليلة المشؤومة، مرة بالاتصال دون أن أجيب، ومرة بقرع باب شقتي الذي كنت أختبئ خلفه حتى ينصرف يائسًا. أما نسرين فظللت معلقًا بها باعتبارها أيقونة حياتي وسر بهجتها، ولكن أي بهجة هذه التي أستطيع أن أنهل منها في ظل مصيبتي؟ فانقطعت عنها تمامًا خلال الثلاثة أيام الأولى من تلك الأربعين السوداء، ثم هفت روحي لسماع صوتها، وعللت لها اختفائي وعدم ردي على اتصالاتها بظروف وفاة عمي التي أجبرتني على السفر إلى ميت غمر، وأنني سأمكث بها فترة لإنهاء بعض المتعلقات المالية مع أولاد عمي. أعجبتني كذبة وجودي في ميت غمر، فخطر لي تنفيذ الفكرة. فبين الأهل والأقارب والبيئة الهادئة، سيكون الوضع أكثر سكينة، بالإضافة إلى قلة فرص الهلاك في تلك البيئة البكر، وفي حال داهمني الموت ربما تكون المصيبة أهون بين أهلي.

قبل الظهر بقليل رتبت حقيبتي، وغادرت البيت متجهًا إلى البلد، السفر في عز الظهر والوصول قبل المغرب بوقت كافٍ يجعل من الرحلة أكثر أمانًا. ترددت قبل مغادرة البيت في أمر السفر بسيارتي، فإما أن أعكف على القيادة بحرص تفاديًا لمخاطر الهلاك، وإما أن أستقل «ميكروباص» أو «بيجو» وأُلقي بالمهمة كاملة على عاتق السائق، اتخذت قراري سريعًا بترك السيارة؛ فنفسيتي المهزوزة لن تتحمل القيادة في السفر. وقفت في الموقف مترددًا في اختيار من سيفوز بمناقصة نقلي للبلد، الميكروباص أم البيجو، أيهما يحمل فرص الهلاك على الطريق؟ البيجو من الممكن أن يتحول إلى علبة سردين حال أي حادث، حجَزْتُ مقعدي في منتصف الميكروباص تمامًا، موقع آمن، بعيدًا عن حادث في المقدمة أو المؤخرة، ولم يتوقف لساني طوال الطريق عن قول «لا إله إلا اللّه»، علّها تكون آخر كلماتي إن صار حادث ما.

مرت الرحلة بسلام، ووصلت إلى بيت العائلة في بلدتنا، بيت تطغى عليه الريفية وإن كان يتسم بأساليب البناء الحديثة، ارتفعت بوابته فوق سلم من خمس درجات، في حين تقع البوابة بين بابين لزريبتين

للبهائم، لكل منهما باب آخر من داخل البيت، ويتكون البيت من ثلاثة أدوار، ينقسم كل منها إلى شقتين، حصل أولاد عمي الأربعة على دورين، في حين كان الدور الأخير كاملًا من نصيبي، هذا بالإضافة إلى شقتين في الدور الأرضي يسكن بإحداهما عمي وزوجته، والأخرى قُسِمت ما بين صالون كبير لاستقبال الضيوف وغرف لتخزين الغلال. صعدت إلى شقتنا بالدور الأخير، بعد استقبال عمي وأبنائه لي وترحيبهم بي، وتناول الغداء الرسمي في بلدتنا: طبق أرز أبيض ناصع البياض دون شعرية، وطبق فاصوليا بيضاء ودجاجة محمرة بكامل هيئتها لا تنفك إلا على الصينية.

بعدما تركني ابن عمي بالشقة وهبط، انتابني الذعر من فكرة المبيت وحيدًا في شقة بالدور الأخير، قد أتعرض لمحاولة سطو عن طريق السطح، والأرجح أنها ستنتهي باغتيالي، فلم تفرغ حقيبتي حمولتها، فسحبتها ونزلت إلى عمي بالدور الأرضي، طالبًا منه الإقامة في الشقة المجاورة لشقته، بحجة عدم الإحراج من النزول والطلوع، مرورًا بزوجات أبناء عمي، خاصة أن مدة إقامتي قد تطول انتظارًا لبيع الأرض، لم يستغرق الأمر أكثر من ساعة،

قام خلالها أولاد عمي بإفراغ غرفة من غرف الغلال وتنظيفها وفرشها بسرير ودولاب خفيف كانا من السهل نقلهما. وعلى الرغم من الرائحة العتيقة للغرفة فإنني استسلمت لنوم عميق، لم أذقه منذ زمن بعيد، استيقظت بعده على حركة دبت في البيت مع أذان الفجر، نهضت على أثرها لدخول الحمام، فوجدت عمي في طريقي، خارجًا من إحدى غرف التخزين، ففاجأني بأنهم سينتظرونني لأصلي معهم الفجر ما دمت مستيقظًا، نشَفَت عروقي من دعوته لي للصلاة؛ فأنا لا أجرؤ على الوقوف بين يدي اللّه وأنا على نجاستي تلك، فخرجت من الحمام وتكومت تحت البطانية متظاهرًا بنوم عميق، حتى جاء أحد أولاد عمي، الذي فتح الغرفة لمناداتي للصلاة، فوجدني في سباتي، فتمتم لائمًا أباه على إرساله ما دمت نائمًا. مر ما يقرب من أسبوع على حال واحد، الخروج مع عمي أو أحد أبنائه لقضاء مصالحهم في الغيطان أو زيارة لشخص ما للاتفاق على بيع محصول أو بهائم، بالإضافة إلى سعينا للترويج إلى بيع أرضي، التي لم نوفق في إيجاد مُشترٍ لها، أما الليل فنقضيه في صالون الضيافة الملاصق لغرفتي، في مجلس رجال مع عمي

وأولاد عمي ومن يستقبلونه من ضيوف، لتأخذ الثرثرة مأخذها في كل شيء: سياسة وكرة وشئون الزراعة وأحوال أهل البلد، حتى يداهمني النوم من الحكاوي والحوارات، فأنتقل لغرفتي للنوم.

(١٥)

ظللت على عهد قلبي مع نسرين؛ فأنا لا أجرؤ على الابتعاد عنها، علَّها تكون من نصيبي إن مرت أزمة الأربعين يومًا تلك بسلام، فكنت أهاتفها يوميًّا لدقائق، أسأل عنها وتسأل عني، واعدًا إياها بإنهاء مصالحي هنا في أقرب وقت والعودة إلى القاهرة. حتى استيقَظْتُ يومًا على تليفون منها قبل حتى شروق الشمس، طلبت مني العودة للقاهرة اليوم؛ فهي على موعد في دار أيتام لتعد يومًا للأطفال من طعام ولعب وغناء، كانت قد ضربَتْ موعدًا مع أخيها للذهاب معها، لكنه لم ينل إجازته من وحدته التجنيدية، كانت قد رتَّبَتْ كل شيء على موعد إجازته لكنه خذلها، فلم تجد أمامها إلا أنا لمساعدتها في إتمام اليوم بعد أن حددت الموعد، والأطفال اليتامى بانتظارها، سكتُّ لثوانٍ أفكر في الأمر فنادت عليَّ:

-إبراهيم.. انت معايا؟

فطلبت منها بعصبية أن تنتظر لثوانٍ، عاودت التفكير في دار الأيتام ومصاحبة نسرين، التي لا بد معها من إحضار بعض الأشياء للأطفال اليتامى، فيترتب على ذلك إنفاق الألف جنيه المتبقية مما نذرته للصدقات، فتُكتَب نهايتي قبل بلوغي نهاية الأربعين المشؤومة، فاشتطتُ غضبًا من نسرين، شعرت بأنها تقوم بدور الدبة التي قتلت صاحبها، آه من كيدهن، أخرجت حواء آدم من الجنة، وستلقي بي نسرين في النار. عاودت نسرين تنبيهي بعد أن طالت مدة تفكيري، فثرت عليها ثورة عارمة، سبَبْتُها لعدم صبرها، نهرتها لإيقاظي مبكرًا لأجل هذا الأمر التافه، وفي صفعة أليمة لقلبي أمرتها بعدم الاتصال بي مجددًا.

(١٦)

أكثر ما كان يزعجني من مسألة تركي للصلاة: سماجة ذلك الشخص المزعج، الحاج عبد المجيد، وهو أخو زوجة عمي، الذي ما كان ينصرف من منزل عمي بعد زيارته اليومية إلا قبل أن يسألني بابتسامة أقرب للسخرية: «مش هنشوفك بقى معانا في المسجد يا أستاذ إبراهيم؟».. قالها أكثر من مرة، وكانت إجابتي واحدة: «إن شاء الله». لم تشغل مسألة تركي الصلاة أحدًا غير عبد المجيد. إلا أن صلاة الجمعة كان لا بد لها من حل عندي، كنت أناور الجميع في كل جمعة، أتأخر حتى يخرج الجميع للمسجد، فأخرج متجولًا في شوارع البلدة الخلفية البعيدة عن البيت، ثم أعود مع نهاية الصلاة موهمًا الجميع أني عائد لتوِّي من المسجد. بلغ قلقي مداه قبل الجمعة الثالثة التي سأتركها، سمعت من قبلُ أنه من ترك ثلاث جمع ختم الله على قلبه، سيختم الله على قلبي

زيادة فوق دناستي، ثم داهمني الحاج عبد المجيد ليلة الجمعة قبل انصرافه حين قال: «نشوفك بقى بكرة في صلاة الجمعة»، قالها في حين شد بيديه الاثنتين على يدَي، وكأنه يلمح لي بأنه على علم بأمر تجولي في شوارع البلد وقت الصلاة.

انصرف الحاج عبد المجيد يومها تاركًا الشكوك تقتلني، ماذا تكون صورتي لديه الآن إن كان قد رآني هاربًا من الصلاة؟ وهل أَبلَغَ أحدًا من عمى وأولاده بمصيبتي؟ وحتى إن كان على خُلُق بما يمنعه أن يفضحني أمام عمي وأبنائه، فإن ما عرفته عنه من زيارته لنا من أحاديثه المليئة بالنميمة والغِيبة لن يمنعه من فضحي عند أهل البلد. كاد رأسي ينفجر من التفكير في حل لتلك المصيبة الجديدة، ففتحت محرك البحث على الإنترنت، كتبت «صلاة شارب الخمر»، فصُعقت مما وجدت.. كل الأحكام تشير إلى أن توبة شارب الخمر لا تمنعه من الصلاة؛ فأمر ترك الصلاة يتعلق بمن يعتاد شرب الخمر، أما من توقف عن الشرب فعليه التوبة ومتابعة الصلاة، طالبًا رضا الله ومغفرته، ولا تمنعه دناسة الفم من الصلاة.

أجهشت بالبكاء ولطمت خدَّيَّ، ضربت رأسي في السرير ندمًا، وشددت شعري حسرة، تبًّا لشيطاني الذي وسوس لي بهلاكي، وأغلق عليَّ أبواب التوبة، تبًّا لي أن استسلمت للذنب، خمسة عشر يومًا قتَلتُ فيها نفسي كل ليلة، مُغرِقًا نفسي في بحور الدناسة التي كان بإمكاني التخلص من إثمها من أول ليلة.

لم يعرف النوم طريقه لي هذه الليلة، اغتسلت وعكفت طوال الليل على الصلاة والاستغفار، حتى رفع المؤذن أذان الفجر، فكنت في الصفوف الأولى من المصلين، عدت بعدها واستسلمت لنوم عميق، استيقظت منه بعد أن ضرب منبه المحمول قبل صلاة الجمعة بساعة كامله، واغتسلت مجددًا، طبقًا لآداب الجمعة، وحجزت مكاني في الصف الأول قبل الخطبة بدقائق، حريصًا على أن يراني الحاج عبد المجيد.

عقدّتُ العزم على العودة للقاهرة وإصلاح ما خربته في حياتي، خاصة إصلاح ذات البين مع نسرين، وذلك بعد أن اتفقت مع عمي على أن يستكمل هو البحث عن مشترٍ للأرض. وبينما كنت أتناول الغداء الأخير في بيت عمي قبل الرحيل، دخل الحاج عبد المجيد

طالبًا مني اصطحاب شقيقة زوجته وابنتها معي إلى القاهرة، خوفًا عليهما مما تحمله الطرق من مخاطر في هذه الأيام، تزمرت ما بين نفسي، فلا طاقة لي بسيدتين قرويتين أجرهما خلفي في تاكسي إلى الموقف ثم أحجز مقعدين لهما بما تحملان من حقائب، ولكن هدأت قليلًا بعد أن استطلعت أمرهما من عمي، الذي أبلغني بأنهما قاهريتان وعائدتان من زيارة لبيت الحاج عبد المجيد، هذا بالإضافة إلى امتلاكهما سيارة ستقلنا إلى القاهرة، وأن الأمر لن يرهقني في شيء سوى وجود رجل معهما سندًا وعونًا في الطريق، بل هما من سينقذني من بهدلة المواصلات، علمت من عمي أيضًا أن تلك السيدة أرملة منذ زمن بعيد، وعاشت لابنتها الطالبة في إحدى الكليات.

توجهنا نحو بيت الحاج عبد المجيد حسب الموعد الذي اتفقنا عليه بعد صلاة العصر، وأحد أبناء عمي يجر لي حقيبتي. ففوجئت مما وجدت عليه هيئة السيدة التي تبدو في بداية الأربعينات من عمرها، محجبة حجابًا عصريًّا، أنيقة إلى حد بعيد، بيضاء يشع وجهها رقة وجمالًا، جسمها وإن بدا ممتلئًا شيئًا ما إلا أنه متناسق،

لم تلفت نظري ابنتها «الكيوت» بقدر ما لفتت هي نظري. جلسَت مدام جميلة، كما عرفني عليها الحاج عبد المجيد، إلى جواري بعد أن جلَسْتُ أنا على مقعد السائق، في سيارتهما ذات الدفع الرباعي، في حين انشغلت ابنتها داليا، التي جلست على الكنبة الخلفية، بالحديث في التليفون إلى من يبدو أنه خطيبها بعد أن استطلعت الدبلة اللامعة في إصبعها. تبادلت الحديث مع مدام جميلة طوال الطريق الذي تمنيت ألَّا ينتهي؛ فهي رقيقة ولبقة وملمة بأمور الحياة، بما يجعل الحديث معها شائقًا حسيًّا وموضوعيًّا، أنثى مكتملة لا مفر من أن تنتابك هواجس جنسية تجاهها. عرفت منها أنها تعمل مديرة لأحد السنترالات الحكومية، غادرت القرية منذ أن التحقت بجامعة القاهرة وكانت تقيم أيام دراستها في المدينة الجامعية، وما إن أنهت دراستها حتى تزوجت وانتقلت مع زوجها المستشار إلى شقته في العجوزة، حتى توفي في حادث بعد زواجهما بست سنوات.

فعلت داليا خيرًا بانشغالها بمكالمة خطيبها طوال الطريق، بصوت هامس لا نسمع منه شيئًا، فتركت لي المجال للاقتراب من الأم

الفاتنة، حكيت لها عن وحدتي وحياتي، وتركي للعمل مدرسًا استعدادًا لبيع الأرض وبداية مشروع خاص أحقق به طموحي، فأثنت على الفكرة بل وعرضت عليَّ أن تشاركني في أي مشروع سأقوم بتنفيذه. كنت مستمتعًا جدًّا بحديثي معها حتى وصلنا إلى بيتهما، في حين ما زالت داليا تتحدث في التليفون، واكتَفَتْ بابتسامة خفيفة تجاهي وأَوْمَأَتْ برأسها بالشكر، ساحبة حقيبتها خلفها واتجهت نحو باب العمارة، في حين انتظرت مدام جميلة معي حتى جاء البواب وحمل حقائبها، ثم انصرفتُ بعد إلحاح منها للصعود معهما لتناول العشاء، تبعه وعد بيننا على زيارتهما في وقت قريب. سحبت حقيبتي وركبت «تاكسي» إلى البيت، تغمرني سعادة كتلك التي غمرتني ذلك اليوم حين قابلت نسرين في المطعم.

* * *

بدأت محاولاتي لاستعادة نسرين صباح اليوم التالي لعودتي من البلد، اتصلت بها كثيرًا فلم ترد نهائيًّا، حاولت الاتصال من أرقام مختلفة، فكانت، بمجرد أن تسمع صوتي، تسرع بإنهاء المكالمة، فقابلت الأمر بفتور وتوقفت عن ملاحقتها.

(١٧)

لبَّيتُ دعوة مدام جميلة على الغداء في أول جمعة تلت عودتنا من البلد، بدا البيت منمقًا ومرتبًا انعكاسًا لأناقتها وذوقها العالي. قبل تقديم الطعام حضر مدعو آخر على الغداء، الملازم وليد، خطيب داليا، شاب متكبر سلَّم عليَّ بأطراف أصابعه، وحياني من طرف أنفه، بعد أن تم تقديمي له على أنني ابن عم جميلة. وجدتُ الطعام شهيًّا أقرب إلى طعام الفنادق والمطاعم ذات النجوم الخمسة، ما يعكس الذوق العالي لأنامل جميلة، بعد أن أكدت لي أنها من جهزت الطعام بالكامل.

ظل وليد على تجاهله لي وعجرفته أن يتحدث معي، لم أسترِح إلا بعد أن اصطحبته داليا للجلوس في شرفتهما التي تبدو كالحديقة، وتركاني حينها مع جميلة نتبادل الحديث، لمست فيها اهتمامها بي

وبحياتي، فتسللت إلى قلبي وازداد اشتهائي لها. تطرق الحديث إلى مسألة المشروع الذي أنوي تنفيذه، عرضت عليَّ تنفيذ المشروع بمالها وعدم الانتظار لبيع الأرض التي يبدو أنها ستأخذ وقتًا كبيرًا لتصريفها. بل وأكثر من كونها ستُمَوِّل المشروع من مالها، أنها تملك فكرة مشروع جاهزة للتنفيذ: شركة لتوريد المهمات والأدوات المكتبية إلى المصالح الحكومية، وأنها تملك علاقات كثيرة ستمكننا من تصريف أعمال الشركة داخل تلك المصالح. فرحت بتلك الخطوة التي أبدت استعدادها لتنفيذها من الغد إن وافقتُ، إلا أن ما جعل قلبي يرقص فرحًا هو الإشارة التي يحملها عرض جميلة؛ فهي إشارة واضحة إلى الانصهار فيما بيننا؛ فمالها مالي كما قالت لي، وأنها سعيدة بظهوري في حياتها كأخ افتقدت وجوده طوال حياتها، كما صرحت في كلامها.

لم يستغرق الأمر طويلًا؛ ففي خلال ما يقرب من أسبوعين كان كل شيء جاهزًا، الشركة بكيانها وأعمالها، كانت أموال جميلة جاهزة، مليون جنيه أودعتها في حساب الشركة، أذهلني حجم ثروتها فشعرت بدهشتي، فحكت لي أكثر من مرة عن الثروة الكبيرة التي

تركها لها زوجها، الذي بدوره كان وارثًا إياها عن أهله الأثرياء، بالإضافة إلى شرائها أكثر من مرة أراضي وشققًا ثم بيعها بعد ارتفاع أسعارها، ما أسهم في مضاعفة ثروتها، أما عن الشركة التي أسسناها معًا فاتفقنا على اقتسام الأرباح مناصفة مقابل إدارتي للشركة، شعرت بارتياح لذلك الأمر، كوني سأحافظ على أرضي وأملاكي وأبدأ حياتي كرجل أعمال بأموال جميلة. بمرور الوقت لم أحتَج لا أنا ولا جميلة لأن يصرح أحدنا بحبه للآخر، فكان ما بيننا علاقة حب واضحة نغلفها من الخارج بأكذوبة «أختي وأخي»، غير أنني كنت أخفي خلف تلك العلاقة رغبة جنسية جامحة تجاهها، فكنت أشتهيها بشكل جنوني، وساعد على ذلك أنها أصبحت تشركني معها في كل شيء، كنت أمر عليها عند البيت وأترك سيارتي الصغيرة، ثم نستقل سيارتها الكبيرة وأصحبها لشراء ملابسها ومكياجها وعطورها؛ حيث كان لا بد لها أن تستعين برأيي في أغراضها قبل الشراء، كانت تثيرني جنسيًّا عندما كانت تقيس ملابسها الجديدة في غرفة القياس ثم تخرج لأبدي لها رأيي، كم تمنيت لو أدخل معها إلى غرفة القياس تلك فألتهمها!

كان كل شيء على ما يرام وممهدًا لطلب الزواج منها، حتى ابنتها داليا كانت على علاقة طيبة بي، لدرجة أنني تصورت أن أمها صارحتها بمشاعرها تجاهي، وذلك لما كانت عليه العلاقة بينهما، التي كانت تبدو وكأنها علاقة بين أختين، ما سهّل من اقتحامي حياتهما. فقط ما كان يزعجني ذلك التعالي والتجاهل الذي كان يعاملني به وليد، خطيب داليا، وذلك في المرات القليلة التي قابلني فيها في منزلهما، لكنني كنت أذكى من أن أشكو لجميلة من وليد، حتى لا أسبب لها أي قلق من علاقتي بابنتها، عند طلبي الزواج منها.

* * *

منذ توبتي الشهيرة في بلدتنا، وأنا متبع لمنهج «أمشي على سطر وأسيب سطر»، ذلك المنهج الكلاسيكي الذي اتبعته من قبل في معركتي مع شيطاني وحدسي وغفواتي. فعدت لاتخاذه منهجًا، فما عدت أخشى نهايتي، هذا بالإضافة إلى ولعي الجنسي بجميلة، الذي جعل تفكيري فيها يطغى على أي هواجس أو وساوس.

(١٨)

لم أجد صعوبة في طلب الزواج من جميلة، فصرحت لها بطلبي يومًا وكنا في السيارة عائدَين من الشركة بعد أن مرت عليَّ بعد عملها، ابتسَمَت حينها ابتسامة أقرب إلى الضحك المعبر عن شدة الفرح، شهقت شهقات متعددة تنم عن أنها نالت حلمًا كان بعيد المنال، اختصرَتْ ما يقلقها من مسألة فارق السن بيننا بجملة استفهامية واحدة: «فكَّرْت كويس؟»، فاختصرت أنا كل مخاوفها بحركة واحدة، فجذبت يدها وقبضت بها على فمي مقبِّلًا إياها، قبلة حملت الكثير من معاني الرغبة الجامحة والمشاعر الفياضة تجاهها. اتفقنا على أن نتناول غداءنا معًا بالنادي مع داليا في اليوم التالي، لاستطلاع رأيها، أفهم أن جميلة كانت تود أن تعرفني بدور ابنتها في حياتها ليس أكثر، ومن المؤكد أن ابنتها على علم

بكل شيء. وصدقت ظنوني حين طلت عليَّ داليا بالنادي مبتسمة وغمزت لي بعينها تجاه أمها، فأخذ الحديث منحناه من دون ترتيب، أرادت أن تعرفني بموافقتها دون أن تحرجني أو تحرج والدتها، فسألتنا عن الموعد الذي حددناه لكتب الكتاب، تشاورنا جميعًا وانتهينا إلى مدة أسبوعين يتم عقد الزوج بعدها.

أخبرتنا داليا بأنها ستترك لنا البيت أسبوعًا، ففهمت أن بيت الزوجية سيكون بيتهما، ثم فاجأتني بقولها إنني يمكنني الإقامة معهما يومين فقط في الأسبوع، حتى تتزوج داليا فأنتقل للإقامة الكاملة مع جميلة، فبدا شيء من الاستياء عليَّ، سرعان ما تجاوزته وأبديت موافقتي؛ فيومان مدة كافية لأنهل من جميلة ما يمتعني ويطفئ ناري.

* * *

عقدنا العقد في موعده، في حفل بسيط ضم عددًا محدودًا من المدعوين، حوالي خمس من صديقات داليا وجميلة، ووليد خطيب داليا الذي أمطرني طوال الحفل بنظرات التهديد والتوعد، وعمي

والحاج عبد المجيد وزوجته أخت جميلة، الذين كانت تحمل عيونهم الكثير من علامات الاستفهام. بعدها انصرف الجميع، وتركوني مع أول تجربة جنسية أخوضها في حياتي.

كانت أكثر من رائعة، اكتشفت فيها أن جميلة كانت تحمل الكثير من الاشتهاء نحوي، فكانت أمتع ليلة في حياتي.

(١٩)

لم أكن أتصور أن جميلة سيصيبها الملل مني بهذه السرعة؛ فبعد ما يقرب من ثلاثة أو أربعة شهور من زواجي منها، تغيرت معاملتها معي وصارت تتسم بالفتور، هذا بالإضافة إلى ما كنت قد اكتشفته فيها بعد الزواج، فظهرت شخصيتها الحقيقية معي، سيدة متسلطة ورأيها نافذ، سببت لي إحراجًا أكثر من مرة عند خروجنا لشراء شيء ما؛ فقد كانت تفرض رأيها عليَّ أمام البائعين، ولا مانع وقتها من رفع مستوى صوتها وإبداء أنه أمر واجب النفاذ. همَّت أكثر من مرة بمراجعة أوضاع الشركة المالية، وذلك على طريقة صاحب المال وليس الشريك، وحين كنت أبدي غضبي كانت لا تتورع عن أن تقول صراحة إنها صاحبة الشركة ومن حقها مراجعة كل شيء.

اصطَنَعَتْ الحجج أكثر من مرة لعدم الحضور لقضاء نهاية الأسبوع

معها، لم تعد تشتهيني كما كانت من قبل، يبدو أنها روت ظمأ الحرمان الذي عانته لسنوات بزواجها مني، حتى صارت العلاقة روتينية بحسب سنها، ذلك في الوقت نفسه الذي أصابني أنا أيضًا الفتور منها؛ إذ بدأت الأمور تأخذ معناها الحقيقي بعد أن نهلت منها متعة البدايات، فصرت أراها كما هي امرأة تعدت الأربعين بسنوات، فبدأت أطالع البنات اليافعات، وأتوق إلى أنوثتهن وبكارتهن، حتى بدأت ألوم نفسي على ما فرطت فيه من هؤلاء البكارى.

صارت علاقتي بجميلة وابنتها تقتصر على كوني ملبيًا لطلباتهما، التي صرت أتلقاها تليفونيًّا وعليَّ شراؤها وتوصيلها لهما في البيت، بالإضافة إلى كوني سائقًا إن لزم الأمر.

(٢٠)

بعد ليلة جنسية باردة مع جميلة، جاءت بعد ثلاثة أسابيع من الفراق، وبينما كان البيت خلية نحل منذ الصباح، استعدادًا لحضور الملازم وليد ووالدته للغداء والاتفاق مع جميلة وداليا على ترتيبات الزفاف الذي اقترب موعده، وبعد نزولي لأكثر من مرة لتلبية طلبات تنقص تجهيز الغداء، وبعد عودتي من آخر مشوار أرسلتاني فيه، طلَبَتْ مني جميلة، وبكل جحود، أن أنصرف من البيت، لعدم ملاءمة وجودي في ذلك الاجتماع؛ حيث سيتطرقون لخصوصيات لا يصح وجودي عند الحديث عنها، أصابني الذهول من طلب جميلة، وعمت الصدمة حواسي، فسحبت متعلقاتي دون أن أنطق بكلمة واحدة، مشيرًا إلى ذلك الغضب الذي اعتراني، والذي واجَهَتهُ جميلة بكل برود وبعظيم اللامبالاة.

توجهت إلى بيتي كي أختلي بحالي وأغسل همي، ففوجئت عند

دخولي البيت ببعثرة محتويات الصالة.. أمعنت النظر فلم أجد لا التليفزيون ولا الريسيفر، هرولت في أرجاء الشقة، اختفى كل ما خف وزنه وغلا ثمنه، ملابسي طريحة الأرض ضحية لبعثرة الدولاب من قِبَل ذلك اللص. توقف بي الزمن لثوانٍ لم أتحرك فيها من مكاني، تذكرت الألف جنيه المتبقية مما كنت نذرته لوجه الله، إلا هذه النقود المعلقة بها حياتي، لن أسمح بضياعها، تسلقت كرسيًّا وتحسست بيدي أعلى الدولاب فلم أعثر عليها، نزلت من على الكرسي، نزعت أبواب الدولاب بقوة، ضربت بقدمي أبوابه وأعمدته حتى انهار، نبشت أنقاضه فلم أعثر على أي أثر للألف جنيه.

غادرت الشقة مسرعًا والجنون يعتريني. قصدت بيت أم فتحي، لم يكن هناك مجيب لطرقاتي على باب شقتها، خرجت واحدة من جيرانها وأبلغتني أنها سافرت إلى أهلها في البلد مع زوجها وأولادها، تطلعت إلى تلك السيدة بتمعن، ربما تؤدي دورها في كذبة نسَجَتها مع أم فتحي للهروب بعد أن قامت بالسطو على شقتي، عاودت طرق الباب حتى كاد ينكسر في يدي، صرَخَتْ

فيَّ جارتها مؤكدة كلامها السابق بسفر أم فتحي وأسرتها، حتى شرعت باقي شقق البيت في فتح أبوابها لاستطلاع الأمر، فغادرت مسرعًا خشية الوقوع في براثن جيران أم فتحي، بينما كان هاجس الألف جنيه يفتك بي، فكرت في أن النهايات تكتب تفاصيلها الآن بعد ضياع الألف جنيه المنذورة. لم أقوَ على حمل نفسي، فانزلقتُ على كرسي في أحد المقاهي في طريق عودتي من بيت أم فتحي، بينما كانت الهواجس تقتلني ببطء، تصببت عرقًا ودارت بي الدنيا في مشهد سينمائي بديع.

وفجأة لم أشعر بنفسي، صار كل ما حولي خيالات، تجمَّع الناس حولي فلم أتبيّن منهم إلا صورًا مشوشة، حملوني على الأيدي والأكتاف، فعدت إلى منطقة من الإدراك الداخلي، تصورت أنها ربما تكون مراسم تشييعي، حتى رُحت في غيبة، فلم أدرك شيئًا حتى أفقت فوجدت نفسي في صيدلية، يحاول الجميع إفاقتي بينما شرع الصيدلي في ضرب حقنة في ذراعي. سألوني عن مكان البيت فوصفته لهم، ثم قاموا بإيقاف تاكسي طرحوني نائمًا نصف نومة على كنبته الخلفية، بينما تطوع أحد أولاد الحلال بالركوب بجوار

السائق لتوصيلي.

توقف التاكسي في زحام الطريق بين السيارات المتكدسة، فلمحت وجه نسرين في إحدى السيارات بجوار شاب رياضي أنيق، بدا أنه خطيبها، استطلعت الأمر فوجدته الشاب الرياضي نفسه الذي شرب معنا الخمر في بيت «أبو سارة»، آه من تلك الليلة المشؤومة التي دمرت حياتي بتفاصيلها وأشخاصها، الذين منح القدر أحدهم فرصة خطف نسرين. تحرك التاكسي قليلًا، فشبهت على أحد الملتحين المارين بالشارع، كان حاملًا طفلًا وساحبًا في يده زوجته، أمعنت النظر فيه جيدًا، إنه هيثم، الشاب الذي طالما تعلقت به لينقذني من الهواجس التي دمرت حياتي، ها هو يعيش حياته على طبيعتها مع زوجته الشابة ورضيعه، وما إن اقترب التاكسي من شارعنا، حتى رأيت محمد رمضان مشَبِكًا يده بيد فتاة شابة فاتنة يبدو أنها خطيبته، بينما أكملت أنا طريقي للبيت وحيدًا مكتئبًا ومهزومًا.

تمت بحمد الله

المؤلف في سطور

أحمد جاد

مواليد ١٩٨٢

حاصل على ليسانس الآداب في الفلسفة من جامعة القاهرة

للتواصل مع الكاتب

ahmedgad82@hotmail.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com